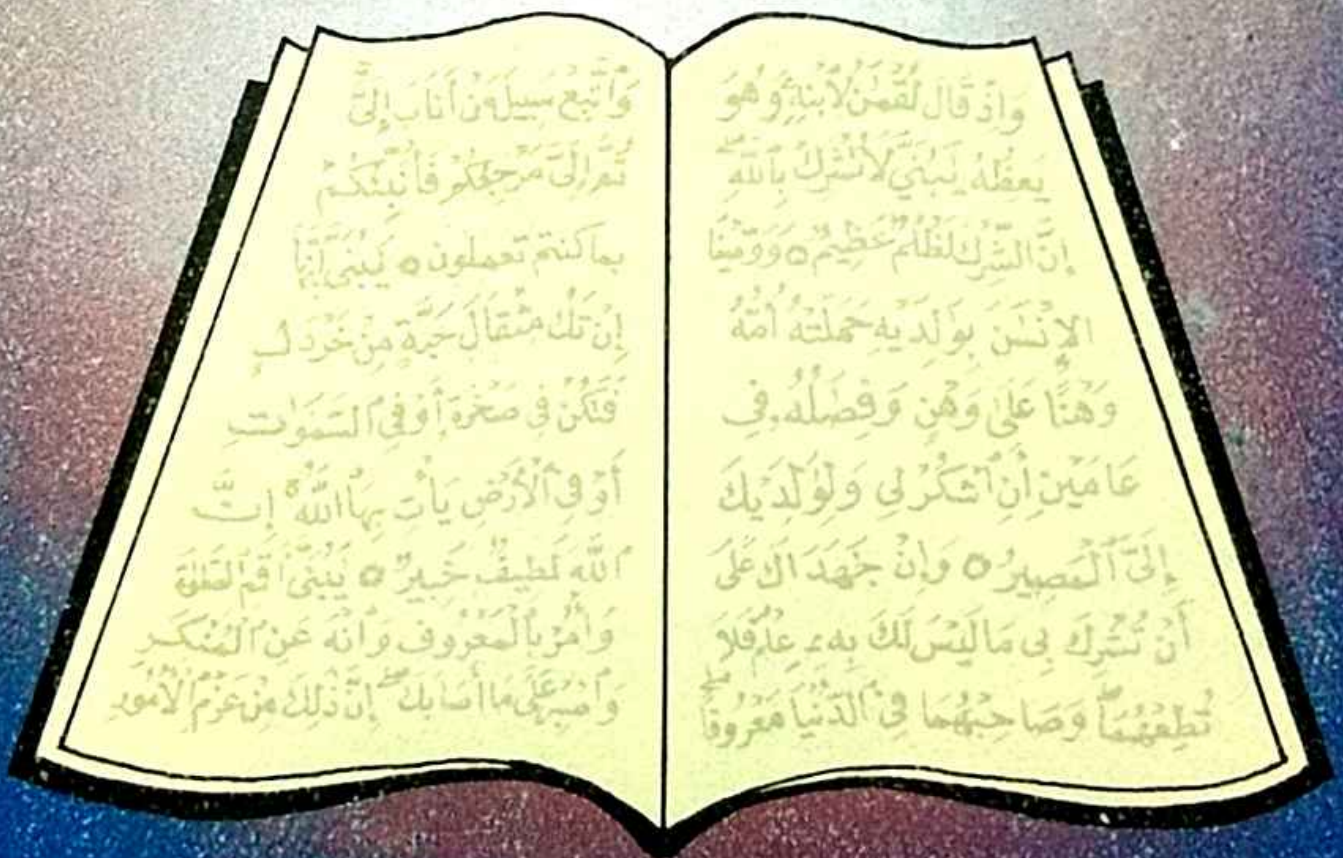


نظرت في كتاب الله

٤

مِنْ هَذِهِ سُوْرَةِ الْقِيَامَةِ

عنان الحام



تقديم

جودت سعيد

مِنْ هَدْيِ
سُورَةِ الْقَمَرِ

نظرات في كتاب الله

حنان عليم

من هدي

سورة لقمان

تقديم

الأستاذة جودت سعيد

دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض - شارع طارق بن زياد
شركة مصر للربح - هاتف: ٤١٢١٩٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ

[النمل] (٥٩)

رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

[البقرة] (١٢٧)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الأستاذ جودت سعيد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .
تنخفض قيمة الأفكار - إن لم نقل : إنها تنمحق - في عالم
تقوم فيه قيمة الأفكار على الأشخاص . ولقد عبر علي رضي الله
عنه عن هذه الفكرة - أو عن هذه المأساة - بأسلوب عصره حين
قال لمن سأله بعد معركة الفتنة عن طلحة والزبير : « أكانا على
حق أم باطل ؟ » أجاب كرم الله وجهه :
« ويلك لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف
أهله » .

وإلى أن يتعلم مجتمعنا التعامل مع الأفكار المجردة نجد
أنفسنا مضطرين لتقديم الأفكار في ظل عالم الأشخاص ، لتنال
الأفكار حظوة الالتفات إليها وإعارتها شيئاً من الانتباه .

لذلك نستجدي من ابن تيمية إعطاء جواز المرور لبعض
التفسيرات ولا سيما تفسير آيات الآفاق والأنفس في قوله تعالى :
﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه

الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴿١﴾ .

إذ بهذا القول الكريم صارت آيات الآفاق والأنفس مرجعاً أساسياً في التفسير والبيان لمعاني القرآن الكريم .

وما يقال بأن القرآن يفسر بعضه بعضاً حق ؛ ولكن ما ترشد إليه هذه الآية من التفسير أنموذج آخر . وقد انتبه إلى أهمية هذا الأسلوب في التفسير ابن تيمية ، حيث عانى مشكلة التفسير ، وردد مراراً هذا القول عن غياب التفسير الصحيح في طائفة من كتب التفسير . قال : « هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ » (٢) .

وقال في موضوع آيات الآفاق والأنفس : « . . . وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ليعلموا أنه قد شهد ، فهو قد بينها بالطريقتين بالسمع والبصر . فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة المنظورة ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك . . .

وأما الطريق العياني فهي أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق كما قال الله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (٣) .

وقال ابن تيمية أيضاً :

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ١٥ ، ص ٣٠ ، طبع الرياض .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ١٤ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ، طبع الرياض .

« فالآيات أفقية وأرضية وقرآنية وهي أدلة العلم . . . » (١) .

وقال أيضاً في قوله تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أي : « أن القرآن حق ؛ فأخبر أنه سيبري عباده الآيات المشهودة المخلوقة ، حتى يتبين لهم أن الآيات المتلوة المسموعة حق » (٢) .

إن المسلمين كثيراً ما اهتموا بالشروط التي ينبغي أن تتوفر لمن يتصدى لتفسير كتاب الله من فهم اللغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ إلى آخر ما هنالك من شروط . غير أن معرفة آيات الله في الآفاق والأنفس ، بدأت تأخذ مكاناً مهماً بين الشروط لتفسير كتاب الله ، فقد بدأت تظهر أهمية آيات الله في الآفاق والأنفس . ولا بد من تناول هذا الموضوع ولو على سبيل الإعلان والتنويه بالهدف ، وإن لم تتمكن من إعطاء التفاصيل .

إن التغييرات الكبرى التي حدثت في العالم في عصرنا هذا إنما أتى بها الذين استطاعوا أن يُشهدوا آيات الآفاق والأنفس على آرائهم في كيفية بدء الخلق . فمن تمكن أن يقيم على رأيه شاهدي عدل من آيات الله في الآفاق والأنفس ، فسيرغم الناس على قبول رأيه . فإن استعصى عليه جيل فسترضخ أعناق الأجيال التالية لسلطان شهادة آيات الله في الآفاق والأنفس .

ومما يدل على ذلك : الأفكار التي حملها الناس قديماً

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ١٦ ، ص ٥٨٥ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ١٨ ، ص ٢٤١ .

وحديثاً عن الشمس والقمر ، وأسباب اختلاف الليل والنهار ؛
حيث تنازع الناس في وجهات نظرهم وتطارحوا النصوص .

ولكن الحل وتحديد معنى النصوص وتفسيرها إنما جاءت
من قِبَلِ مَنْ رَأَى آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ فَقَطَعَ بِذَلِكَ الْخِصَامَ
وَاللَّجْجَ . ورأى الناس الحق في آيات الكتاب في ضوء آيات الله
في الآفاق .

وفي هذا المثل بالذات : آية من آيات الله في الأنفس ،
وكيف أن النفوس تخضع للتفسير الخاطيء حين تغيب آيات الله
في الآفاق .

وفيه أيضاً آية للإنسان ليتواضع في رأيه ، خشية أن يكون
على خطأ ، حيث أن هذه الشمس التي يضرب بها المثل في
الوضوح والظهور كان الناس يرون في ظهورها وغيابها رأياً خاطئاً
فقلبت آيات الآفاق عليهم آراءهم رأساً على عقب . فهذه آية
ليكف الإنسان من غلوائه في رأيه حتى تشهد آيات الله في الآفاق
والأنفس ، فإذا كان الله فرض على الناس اتباع آيات الكتاب فقد
جعل رؤية الحق في آيات كتابه بواسطة آياته في الآفاق والأنفس .

واليوم بدأ يظهر الحق في عوامل سلوك الإنسان في آيات
الأنفس ، كما ظهر الحق في أسلوب سلوك الشمس في آيات الله
في الآفاق .

ويظن الناس أن حظوظهم ولا سيما العاثر منها في
حياتهم أفراداً وجماعات ، إنما سببه الناس الآخرون ، بينما

بدأ يظهر في آيات الأنفس أن حظك في حياتك الدنيا إنما سببه ما بداخلك عن الآخرين . وأخذ يتحدد تفسير الآيات في هذا الموضوع في ضوء آيات الأنفس . فقد بدأ الناس الذين لهم اطلاع على آيات الله في الأنفس ، يرون أن ما يصيب الناس في حياتهم إنما هو من عند أنفسهم . وهذا النظر انقلاب لنظرة الإنسان من أن الآخرين هم عوامل تعثره في سعيه والعقبات في طريقه . وفي ضوء هذه الآيات النفسية ، بدأ التفسير يأخذ باهتمامات جديدة مثل قوله تعالى :

﴿ أو لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أُنِيَ هَذَا ؟ قُل : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ . وقول الرسول ﷺ :

« من وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » . وحين يبدأ المسلم يدرك آيات الله في الكتاب من خلال رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس ، سيبدأ المسلم يبصر الأمور بعينين بدل أن يراها بعين واحدة^(١) شأن الذين يفقدون النظر السليم .

وسيصر الموضوع من جانبين بدل أن يبصره من جانب واحد ، وسيمشي سوياً على صراط مستقيم بدل أن يمشي مكباً على وجهه .

وسيعرف الصواب من منابع البحرين وستتحول بضاعته المزجاة إلى اللؤلؤ والمرجان ، ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . ﴿ وَتَعَلَّمْنَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ولعله قريب . فطوبى لمن يهين نفسه

(١) ولعل في أن الدجال بعين واحدة مغزى .

للقيام بهذه الشهادة لينضم مع أولي العلم القائمين بالقسط الذين
قرنت شهادتهم بشهادة الله وشهادة الملائكة : ﴿شهد الله أنه لا
إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ..﴾ (١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

جودت سعيد

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب الذكر الحكيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد . . فهذه تأملات متواضعة في سورة لقمان أقتطفها من بعض كتب التفسير ، ومن كتب ومحاضرات أخرى . . . أعرضها على استحياء ، راجية المولى سبحانه أن يأخذ بيد النخبة المخلصة الواعية لتنهل من بحر كلماته وتلتقط من كنوزه مزيداً من التفاسير لكتابه الكريم . . .

﴿ قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مدداً ﴾^(١) .

إن مدلولات القرآن الكريم لا تنتهي . . . ومعينه لا ينضب . . . وما زال المؤمنون المتدبرون يفهمون منه معاني جديدة تتكشف لهم جيلاً بعد جيل . .

هذا ما أردته من تسجيل هذه التأملات . . فلئن أصبت فله الحمد والمنة . . وإن أخطأت فهو الغفور الرحيم .
﴿ ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ﴾ .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حنان لحام

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ .

سورة لقمان

مكية وعدد آياتها ٣٤ آية

لو تأملنا القضايا الأساسية التي تبحثها المبادئ أو العقائد ، فإننا نلاحظ أن جميع العقائد تهتم بإيجاد العلاقة الصحيحة بين الإنسان من جهة ، والله والكون والبشر من جهة أخرى . وعلى هذا نستطيع أن نرى أن كل مبدأ يعطي تصوراً معيناً لشبكة العلاقات بين :

● الإنسان والله .

● الإنسان والكون .

● الإنسان والبشر .

والإسلام كدين - أو مبدأ سماوي - يعرض على الناس في القرآن الكريم نوعية معينة لهذه العلاقات ، ويطلب منا تأملها ومقارنتها مع المبادئ الأخرى ، ورؤية عواقبها ونتائجها . فالعواقب هي التي تحكم : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . إنه لا يفلح الظالمون ﴾^(١) . هذه العلاقات القرآنية نستطيع إيجازها بهذا الشكل :

١ - الإنسان يرتبط مع الله بعلاقة العبودية .

٢ - الإنسان يرتبط مع الكون بعلاقة التسخير .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٣٥ .

٣ - الإنسان يتعامل مع البشر على أساس العدل والإحسان .

وموضوع هذه السورة كباقي السور المكية : العقيدة . . أي شبكة العلاقات السابقة الذكر . وتوحيد الله في العبادة لا يتحقق إلا بتمثل هذه العلاقات كما حددها الله ؛ وهذا ما سَيُسأل عنه الإنسان في الآخرة .

ولقد تناولت السور المكية - خاصة - موضوع توحيد الله واليقين بالآخرة بأساليب متنوعة بحيث تصبح كل سورة ذات طابع معين وشخصية محددة برغم تشابهها مع أخواتها .

ويمكن تقسيم هذه السورة لتسهيل الدراسة إلى أربعة أقسام .

مفاهيم سورة لقمان

١ - القرآن الكريم ومواقف الناس منه : (الآيات من ١ إلى ١١)

١- افتتاح السورة : الحديث عن القرآن .

٢- المحسنون .

٣- المعرضون وجزاءهم وجزاء المؤمنين .

٤- صور من خلق الله .

٢ - لقمان الحكيم : (الآيات من ١٢ إلى ١٩)

١- حكمة لقمان : شكره لله .

٢- وصية لقمان الحكيم لابنه .

٣ - أيها الإنسان ماذا أنت فاعل ؟ (الآيات من ٢٠ إلى ٢٨)

١- الكون مسخر للإنسان المنعم عليه^(١) .

٢- موقف المجادل المقلد .

٣- جزاء الفريقين .

٤- اعتراف الفطرة بالله الخالق .

٥- علم الله وقدرته .

٤ - الله هو الحق : (الآيات من ٢٩ إلى ٣٤)

١- الكون دليل على الله .

٢- الإنسان يلجأ إلى الله عند الشدة والهول .

٣- فكيف بهول القيامة . . ؟!

٤- خاتمة السورة : المغيبات الخمس .

(١) المنعم عليه مأخوذة من التصنيف القرآني الوارد في سورة الفاتحة : « صراط الذين

أنعمت عليهم » . وهم الذين عرفوا الحق والتزموا به .

الفصل الأول

القرآن الكريم ومواقف الناس منه

سُورَةُ الْقَمَاطِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ؕ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

افتتاح السورة



آيات الكتاب هي من هذه الأحرف التي تستعملونها . . إن الله خلق من التراب إنساناً حياً فذاً . . وجعل من هذه الأحرف قرآناً ودستوراً عالمياً ، فيه الهداية والرشاد والفلاح . والفرق بين صنعة الله وصنعة البشر ، كالفرق بين الكائن الحي والصنم الذي لا روح فيه ، وفي ذلك تحذيراً للبشر وتنبية إلى قدرة الله وإعجازه .

هذه الأحرف تشير أيضاً إلى مرحلة هامة في حياة البشرية ، بدأت حين كشف الإنسان الكتابة ، وصار قادراً على اختزال المعرفة بالحرف ، وحفظ العلم بالكتابة ؛ وعندها فتحت مجالات واسعة لظهور ذاكرة جديدة للبشرية . وحياة البشرية كحياة الإنسان تمر بمراحل الطفولة ، ثم تتفتح وتنمو نحو الشباب والنضج . ومرحلة كشف الأحرف في حياة البشرية مثل مرحلة الطفل عندما يدخل عالم القراءة والكتابة . فقد صار بالإمكان تسجيل الأحداث والتجارب والتصورات والمعارف . وهكذا نمت ذاكرة البشرية وأثرت . فإذا كان بإمكان جدي أن يتحدث بطلاقة عما جرى من أحداث في بلدنا منذ مائة عام . . فإن بإمكان المؤرخ المعاصر أن يتحدث عما جرى في العالم منذ خمسة آلاف سنة .

إن تاريخ الإنسانية صار مضيئاً منذ أن صار بالإمكان حبسه وتسجيله . ولعل الملائكة لو شهدت الإنسان في هذه المرحلة لعلمت أن له مستقبلاً أفضل مما توقعوا حين قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! ﴾ (١) .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

الحكمة : هي وضع الأمور في مواضعها .
والحكمة : هي اختصار الطريق إلى الصواب .
والحكمة : فهم أسرار الأشياء وقوانينها إلى درجة توصلنا إلى ما نريد بأقل وقت وجهد ممكنين . ولا أعني بذلك التسرع والاستعجال ، لأن المتسرع لا يصل أبداً . وكيف يصل من يريد أن يقفز فوق القوانين .؟! وكما قال تشيسترتون : « من أكبر مثالب السرعة أنها تستغرق وقتاً طويلاً للغاية » . .

الحكيم هو الذي يتروى الأشياء ويستنبط المعاني العميقة لما يحتاج إلى تدقيق ونظر . و ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ : من يتبعه يؤت الحكمة . ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (٢) . لأن الحكمة تهدي إلى الحق والخير ، وتدل الإنسان وترشده إلى الصواب ، فهي هداية وعنها تنتج الرحمة .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

المحسنون

هُدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾

وكلما وصلت بأقل الجهود إلى أفضل النتائج كنت في رحمة .
فالصواب رحمة ، وعدم الاهتداء للصواب يجر الآلام ، ورسول
الله ﷺ رحمة مهداة ، جاء بالهدى الذي يكشف الصراط المستقيم .

وتجارب البشر عبر التاريخ إنما هي محاولات لكشف الصواب
والوصول إلى الحكمة والرحمة . . . والتدقيق في التاريخ على هذا
الأساس يوفر علينا كثيراً من الوقت والجهد والآلام .

ألم تزهق أرواح كثيرة قبل أن تكشف البشرية قانون علاج
الأمراض . . ؟ ألم تكن المعاناة كبيرة عندما كانوا يلجؤون إلى ضرب
المريض لتخليصه من الأرواح الشريرة كما كانوا يزعمون . . ؟!

وكم كان كشف الطباعة رحمة للبشر ، حين ساعد الإنسان على
اختزال الجهود المبذولة لنشر الأفكار بدلاً من نسخها يدوياً . . !!

إن الكتاب الحكيم الذي دلّ بأوامره على القوانين الصحيحة
للتعامل مع الله والكون والإنسان هو :

﴿ هدى ورحمة للمحسنين ﴾ :

رحمة لما يسكبه من أمن في النفوس وبما يعطي في الدنيا والآخرة
من رحمة ونجاة .

﴿ يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب
عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين

يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق
الإنسان ضعيفاً ﴿١﴾ .

(للمحسنين) :

هؤلاء هم الذين ينتفعون من هداية القرآن ورحمته دون غيرهم .
وهذا يتطلب منا وقفة تأمل ، فالكتاب والإنسان طرفان مشتركان في عملية
التغيير . الكتاب هو المثل الأعلى . . والإنسان هو الذي يتفاعل معه
ليعطي التطبيق العملي لهذا المثل الأعلى . وما ظهرت حضارة على وجه
الأرض إلا بعد أن حدث هذا التفاعل بين الإنسان ومثل أعلى ، سواء
أكان هذا المثل الأعلى ربانياً أم بشرياً . وأما الحضارة الإسلامية فمثلها
الأعلى هو القرآن ، وهو وسيلة التغيير الذي موضوعه الإنسان ، ولكن هل
يحدث التغيير دائماً . . ؟

إن التغيير كالتفاعل الكيميائي دائماً إذ لا يكفي فيه جمع العناصر
المراد تركيبها ، وإنما لا بد من مراعاة شروط يجب أن تتوفر فيها ،
كدرجة الحرارة ومستوى الرطوبة والضغط الجوي ونقاوة العناصر . .
وكذلك التغيير يحتاج إلى شروط لا بد من توافرها في الطرفين : الكتاب
والإنسان .

● فمن شروط الكتاب مثلاً ألا يناله التبديل - كتغيير نصوص أو
ألفاظ منه - ولا التحريف - أي : تغيير معاني الآيات - ولا الكتمان :
بالكف عن بيانه وتعليمه للناس ، إضافة إلى شرط آخر موضوعي وهو :
ألا يتناقض مع التقدم العلمي ، وشرط تأثيري أي : أن يكون أسلوبه
متناسباً مع نفسية الإنسان ودوافعه وتطلعاته .

(١) سورة النساء ، الآيات ٢٦ - ٢٨ .

● أما شروط الإنسان : فقد أشار إليها القرآن في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ (١) .
فيجب أن تتوفر فيه شروط الحياة الفكرية . وإذا كانت حياة الجسد لها شروط مثل درجة حرارة معينة ونسب معينة في تركيب الدم ومستوى معين من الضغط الدموي . . فإن الحياة الفكرية لها شروط ، علينا أن نعنى بكشفها ، ولا ندعي إحاطتنا بها . فمنها مثلاً :

١ - توفر حد أدنى من العلم يكفي لإعطاء الإنسان موقفاً علمياً ، فلا يصدق فكرة أو يكذبها إلا بعد أن يتبين له البرهان ، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ حين تحدث عن ذهاب العلم عندما سئل :

وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أولادنا ؟ فقال :
« أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء » (٢) ؟ !

٢ - رفع الظلم والإكراه في الدين عن الإنسان حتى تتوفر له حرية التفكير والاختيار .

٣ - توفر حد أدنى من الأخلاق ، لأن المتمرغ في الوحل بعيد المنال : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٣) . . ولعل الآية هنا تشير إلى هذه النقطة إذ تشترط الإحسان . ولا ريب بأن مستوى الإحسان يحتاج إلى تنمية في الكم والكيف ، وأدع الحديث عن هذه الشروط وتأملها للباحثين المتخصصين . . وأعود إلى آية الإحسان . فما الإحسان ؟

(١) سورة يس ، الآية ٧٠ .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة وصححه .

(٣) سورة المطففين ، الآية ١٤ .

جاء في حديث سؤال جبريل عليه السلام ، أن الإحسان مرحلة أعلى من الإسلام والإيمان . وهو مرحلة الشهود واليقين بحيث لا تؤدي عملك فحسب ، ولكن أن تحسن الأداء لأن عين المحبوب تراك وترعاك : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

فهو الإتقان في العمل وإعطاء الناس حقهم وزيادة عليه من نفسك . فالمحسن يقوم بواجبات أكثر مما يحصل على حقوق .

ولعمري إنه لمنعطف بارز في حياة الأمة ونموها أن يرتفع رصيدها في أداء الواجبات حتى يغطي الحقوق ويفيض عليها . . إذ أن من الملاحظ الآن تصنيف الأمم إلى ثلاث مراتب :

١ - متخلفة (تتراجع) .

٢ - راكدة (تقف في مكانها) .

٣ - متقدمة (تزداد نمواً) .

والنظرة الفاحصة تكشف عن الخلفية الاجتماعية الكامنة وراء كل أمة .

إذ أن الأمة المتخلفة تتضخم فيها الحقوق على حساب الواجبات ، فالأفراد يحصلون فيها على أكثر مما يُعطون . وكثيراً ما يطلق على هذا النوع : مجتمع استهلاكي . (الاستيراد أكبر من التصدير) .

والأمة الراكدة تتساوى فيها الحقوق والواجبات ، والفرد فيها يعمل على قدر الأجر الذي يأخذه ، ولا مجال للزيادة أو التطوع ، فهي لا تملك فائضاً تصدره (اقتصاد مغلق) .

(١) رواه مسلم .

أما الأمة المتقدمة ، فكفة الواجبات فيها راجحة على كفة الحقوق ، فهي تنتج أكثر مما تستهلك . (التصدير أكبر من الاستيراد) .

والأمم تمر بأزمات حالكة لا ينجيها منها إلا تحول مواطنيها إلى خط الواجبات والاندفاع في أدائها تطوعاً بدون مقابل ، كما حدث لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث تطوع الناس يوماً بإضافة ساعتين عمل حتى استطاعت أن تقف على أقدامها من جديد .

وإن من أقوى المؤثرات العاملة على إنشاء الشخصية الباذلة المعطاة التي تقدر المسؤولية حق قدرها هو الشعور برقابة الله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

يعود القرآن هنا ليصف المحسنين بثلاث صفات :

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

أ - الصفة الأولى : ﴿يقيمون الصلاة﴾

وإقامة الصلاة لا تتحقق إلا عندما يتوافر فيها الإتيان من ثلاث نواح : في الحركات (الشكل) ، والقراءة ، والخشوع .

والمقياس الذي يجب العودة إليه هو صلاة النبي ﷺ بالذات ، فالرسول ﷺ يقول : « صلوا كما رأيتموني أصلي »^(١) . ولعل كثيرين يشعرون بأن الصلاة من حيث الحركات موضوع معروف مفروغ منه ، ولكن من يطلع على الأحاديث التي وصفت صلاة النبي ﷺ ، يشعر بأخطاء كثيرة نرتكبها في هذا المجال . . ولذا رأيت أن أنبه إلى بعضها :

(١) رواه البخاري .

١ - وجوب السترة : « كان إذا صلى في فضاء ليس فيه شيء يستتر به ، غرز بين يديه حربة فصلى إليها والناس وراءه » . رواه البخاري ومسلم .

فكان يفعل ذلك حتى لا يقطع أحد عليه صلاته وحتى لا يعيق عبور الناس وحركتهم بصلاته .

٢ - الاطمئنان في كل أركان الصلاة : « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته . قالوا : يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟! قال : لا يتم ركوعها وسجودها » رواه الطبراني والحاكم .

٣ - الركوع : « كان إذا ركع بسط ظهره وسوَّاه ، حتى لو صب عليه الماء لاستقر » روى البيهقي والبخاري نصفه والطبراني النصف الآخر .

٤ - الرفع من الركوع : « وإذا رفعت فأقم صلبك ، وارفع رأسك حتى ترجع العظام إلى مفاصلها » . رواه البخاري ومسلم .

٥ - النزول للسجود : « إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير ، وليضع يديه قبل ركبتيه » . رواه أبو داود وأحمد .

فالبعير يبرك على ربكتي يديه . وفي هذا تكريم للمسلم بنهيه عن حركات الحيوان^(١) .

٦ - هيئة السجود : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على

(١) وقد ذكر لي أحد الأطباء المختصين بمعالجة آفات العظام والمفاصل : أن حركات الصلاة هي أفضل رياضة يومية تعين على إعطاء الجسم المرونة اللازمة إلا النزول للسجود على الركبتين فإنه يسبب لهما آفة أحياناً ، فلما ذكرت له أن السنة تأمر بالنزول على الكفين . قال : سبحان الله . . !

الجبهة - وأشار بيده على أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين « (١) .
رواه البخاري ومسلم .

و « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك » . رواه مسلم .
و « لا يفرش أحدكم ذراعيه افتراش الكلب » . رواه أحمد
والترمذي . فما ينبغي للمسلم أن يجلس على هيئات من سمات
الحيوانات .

٧ - القعود بين السجدين : « فإذا رفعت فاقعد على فخذك
اليسرى » . رواه أبو داود وأحمد . « وينصب رجله اليمنى ويستقبل
بأصابعها القبلة » . رواه البخاري . وهذه أيضاً هي هيئة القعود للشهد
الأول . ولنا أن نلاحظ أن أبا هريرة لم يكن يستطيع الجلوس على هذه
الهيئة . . فلا بأس على المصلي من تغييرها إن لم يطقها وسببت له
آلاماً .

٨ - النهوض : « كان ينهض معتمداً بيديه على الأرض إلى الركعة
الثانية » . رواه البخاري .

٩ - القعود الأخير : « يفضي بوركه اليسرى إلى الأرض . ويخرج
قدميه من ناحية واحدة (رواه أبو داود) ويجعل اليسرى تحت فخذه
وساقه (رواه مسلم) وينصب اليمنى (للبخاري) وربما فرشها (من
رواية مسلم) .

١٠ - لم يرد في السنة ما يقتضي استثناء النساء من بعض ذلك .
وعموم الأمر : « صلوا كما رأيتموني أصلي » يشملهن .
وأما إتقان القراءة في الصلاة فإنه يقتضي حفظ أدعية الصلاة ،

(١) أي أصابع القدمين .

وحفظ بعض السور من القرآن مع المعرفة التطبيقية لأحكام تلاوة القرآن .
والوصول إلى القراءة الصحيحة المرتلة شيء يجب أن نحرص
عليه ، لأن الله يقول : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك
يؤمنون به ﴾ (١) .

يقول الصحابي الجليل ابن مسعود : « والذي نفسي بيده إن حق
تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقراه كما أنزله الله ، ولا يحرف
الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله » .

وبعد ذلك علينا أن نحاول إلزام العقل بمتابعة أعمال الصلاة
ومعاني ما نقرأ حتى يحصل التدبر والتأمل ، وهذا يؤدي إلى الخشوع .
وإذا تحقق الخشوع فهو أول الفلاح في الدنيا والآخرة . . ﴿ قد أفلح
المؤمنون : الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (٢) .

ولعل شهادة علماء النفس تدلنا على مدى الفلاح الذي يحرزه في
الدنيا هؤلاء الذين عودوا أنفسهم على حصر الذهن والتركيز في العمل
الذي يقومون به . يقول وليم جيمس - أبو علم النفس الحديث - : « إن
الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه إلى صفة أو
موهبة فطرية للعقل ، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها
هممهم ، وإلى درجة التركيز التي يسعون أن يبلغوها . . » (٣) .

ويقول وليم مولتون - المتخصص في علم النفس - : « وهذه
القدرة تكتسب بالمرانة . . والمرانة تتطلب الصبر ، فإن الانتقال من

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢١ . وقد اورد الحافظ ابن كثير قول ابن مسعود في تفسير الآية .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ١ .

(٣) راجع : « روح الصلاة » لعفيف طيارة .

الشروء إلى حصر الذهن حصراً بيّناً محكماً ، هو ثمرة الجهد الملح .
فإذا استطعت أن ترد عقلك مرة بعد أخرى وخمسين مرة ومائة مرة إلى
الموضوع الذي اعتزمت معالجته ، فإن الخواطر لا تلبث أن تخلي مكانها
للموضوع الذي آثرته بالاختيار ، ثم تجد نفسك آخر الأمر قادراً على
حصر ذهنك بإرادتك فيما تختار» (١) .

ومما يؤكد أثر الصلاة في تكوين هذه القدرة قول مولتون : «وخير ما
يمسك الالتفات ويمنعه أن يتوزع هو أن يعمل العقل والجسم معاً
بالاتحاد فيما بينهما» (٢) وهذا يتوفر في الصلاة .

فالمسلم يملك هذه الفرصة التي تساعد على أن يتصف
بالتركيز . . ألا وهي الصلاة بتدبر . . ولهذا ينبغي أن نحاول باستمرار
أداء الصلاة بتدبر لننال الأجر الكبير في الآخرة ، ويصبح التدبر بالأمور
من صفاتنا . . عدا عن المتعة النفسية التي يحققها الخشوع .

فإذا عدنا لتأمل مكانة الصلاة في الإسلام ، وجدنا أن الصلاة هي
أول عبادة فرضت على المسلمين . وهي وحدها التي فرضت في السماء
ليلة الإسراء والمعراج ، فكان ذلك دليلاً على تفرداها في المكانة . فلئن
كانت الدول تستدعي سفراءها في الأمور الهامة ، فإن محمداً ﷺ رسول
الله إلى الخلق قد استدعاه الله ليخاطبه بفرض الصلوات . . وكانت
الصلاة آخر وصية كررها النبي ﷺ عند وفاته . . وأول ذنب يعترف به
المجرمون في نار جهنم عندما يسألون : ﴿ ما سلككم في سقر . . ؟
قالوا : لم نك من المصلين ﴾ (٣) .

(١) روح الصلاة ، عفيف طيارة .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) سورة المدثر ، الآية ٤٢ .

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . فإن صلحت فقد أفلح ونجح . وإن فسدت فقد خاب وخسر . فإن انتقص من فريضة شيئاً ، قال الرب تبارك وتعالى : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة . ثم يكون سائر عمله على ذلك » .

ولقد جاء وفد ثقيف يطلبون من النبي ﷺ إعفاءهم من الصلاة فقال لهم : « لا خير في دين لا صلاة فيه » .

هذه الحقيقة التي ذكرها ﷺ منذ قرون يقولها « سباتيه » مدرس الفلسفة في جامعة باريس عندما عرّف الدين : « هو صلة وعلاقة معروفة تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر أنها تابعة لها وتحت مشيئتها . فالصلاة هي الدين في حال العمل أو هي الدين الحق . . . وحيث لا توجد هذه الصلة فلا يكون هناك دين » (١) .

وإنما كانت لها هذه الأهمية لأن إقامتها على حقيقتها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولقد قلتُ : إن الإحسان لا يتحقق في الصلاة حتى يتقن المصلي فيها : الحركات والقراءة والخشوع . . فلم كانت الصلاة هكذا؟ ولم لا تكون بالتأمل فقط؟! هذا التساؤل حدث عند محمد أسد قبل أن يسلم ، كما أنه قد يخطر في بال كثيرين من الناس .

يذكر « محمد أسد » في كتابه « الطريق إلى الإسلام » : كيف أنه راقب جماعة من المصلين في بيت المقدس فاستغرب استغراقهم الكامل مع أنها مقترنة بحركات جسمانية . . فسأل الإمام : ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه وأن يصلي إلى الله في قلبه . . ؟ ! « ابتسم

(١) روح الصلاة لعفيف طيارة .

الحاجي وأجاب : بأية طريقة أخرى إذن يجب أن نعبد الله ؟ ألم يخلق الجسد والروح معاً ؟ أفلا يجب أن يصلي الإنسان بجسده كما يصلي بروحه ؟ . ثم شرح له بعض المغزى من حركات الصلاة . . يقول محمد أسد : « وبعد ذلك بسنوات عدة أدركت أن الحاجي بتفسيره البسيط قد فتح لي أول باب للدخول في دين الإسلام » .

ولقد سبق للأستاذ « علي الطنطاوي » أن وقف على بعض معاني حركات الصلاة وأدعيتها في رسالة بعنوان « صلاة ركعتين » ألتقط منها بتصرف ما يلي :

- تكبيرة الإحرام : يرفع يديه وكأنه يطرد الدنيا من فكره ويعلن انقطاعه عن كل شيء ما عدا الله ، ويكبر مقرأً لله بالكبر والسلطان ، معترفاً بصغره وعبوديته لله . . مذكراً نفسه بأن الله أكبر من أي شيء ولقاءً أعظم من أي شيء . . ولما يتعوذ ويسمي الله يتذكر أنه باسمه قامت السموات والأرض ، وأنه هو العبد العاجز فيبدأ ويستعين به ويستمد القوة منه . ولما يقرأ الفاتحة يذكر فيها خمسة من أسماء الله . . وكأن الله يقول للإنسان : خلقتك أولاً فأنا الله ، ثم ربيتك بأوجه النعم فأنا رب . ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن . . ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم . . ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين .

وفي الحديث : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل . فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى علي عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله : مجدني عبدي - وقال مرة : فوض إلي عبدي - فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبي ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم . . . قال

الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» (١) .

ثم يركع إجلالاً لله العظيم . . ثم يسجد فيلقي بنفسه بين يدي الله
تذلاً وخضوعاً . . فإذا فعل المصلي ذلك أسرع إليه رحمة الله . .
﴿ واسجد واقرب . . ﴾ (٢) . جاء في الحديث : « عليك بكثرة
السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ بها
عنك خطيئة » (٣) .

ونحن كثيراً ما نغفل عن ميزات الصلاة بحكم العادة والإلف .
ولكن حين نتأمل أقوال من حرّموا من الصلاة الإسلامية ثم عرفوها
وتذوقوها ، نتذكر رحمة الله بنا في هذه الصلاة ، ولقد وجدت في كتاب
« رجال ونساء أسلموا » صوراً من مشاعر بعض الذين أسلموا عن
الصلاة . . فواحدة يثيرها : أن يكون بإمكان أي إنسان أن يقف بين يدي
ربه دون وساطة أحد ؟ ! وآخر أخذ ببساطة المسجد ونظام المصلين
وخشوعهم واستغراقهم (٤) . . وسمعت فتاة مؤمنة تقول بعد شفائها من
كسر أصيبت به ركبتيها فأقعدها عن أداء الصلاة بالشكل الكامل : « كان
من أكثر ما يحز في قلبي حرمانني من السجود . . كنت أتحرق على أن
أرتمي بين يدي الله . . أن أمرغ جبتي بالأرض تذلاً إليه . .
سبحانه » .

ولنا أن نتساءل أيضاً : هل الصلاة هي عبادة لله فقط أم نحن
بحاجة إليها . . ؟

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) سورة العلق ، الآية ١٩ .

(٣) رواه ثوبان في صحيح مسلم . وإلى هنا ينتهي ما اقتبسته من (صلاة ركعتين) للأستاذ
علي الطنطاوي .

(٤) راجع كتاب رجال ونساء أسلموا ، تأليف عرفات كامل العشي .

١ - إن روح الإنسان إن لم تتصل بخالقها ، ظهرت عليه عوارض القلق والضياع . . فلا يدرك معنى وجوده ، ويحاول التغلب على مشاعره بأن ينغمس بما يلهيه عن مشكلته كالتقاليع « والموضات » ووسائل اللهو . . والرسول ﷺ حين يقول : « أرحنا بها يا بلال » ، يشعرنا بأنها إجازة قصيرة من مشاغل الدنيا ومشكلاتها . . نلجأ بها الى الله . . وقد قالت إحداهن : « عجبت لمن لا يصلي كيف يستطيع أن يتحمل الحياة . . ؟ ! » . ﴿ إن الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ﴿ (١) .

٢ - الصلاة تحرير للإنسان من كل أنواع العبودية . . فقد يفهم البعض معنى الحرية أن ينطلق الإنسان ليحيا كما يريد ؟ فهل معنى الحرية أن تصبح حيواناً ؟ وهل معنى الحرية رفض الدين ؟ ! .

إن الذي يرفض أن يخضع لله سيخضع لأشياء تافهة ، لا يليق بالإنسان أن يخضع لها . . يخضع لرأي الناس . . للتقاليد . . للشهوات . . للاستبداد والطغيان . . لكن المؤمن الذي يسجد لله يبقى هو الحر الحقيقي ، لأنه لا يخضع ولا يسجد إلا لله (٢) .

فيا أيها السادر اللاهي . . أيها المسلم الغافل عن كنه الصلاة . . اسمع وعيد الله وعتابه . . ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ (٣) .

(١) سورة المعارج ، الآيات ١٩ - ٢٣ .

(٢) راجع ما ذكره « المودودي » في كتابه « نظرية الإسلام وهديه » عن الأذان ومعناه .

(٣) سورة مريم ، الآية ٥٩ .

إن إهمال الصلة بالله يؤدي إلى الاستسلام للشهوات . .
والشهوات تدفن المواهب العقلية وتضعف الصحة الجسدية ، وتصرف
الإنسان عن التفكير في المستقبل . . والتاريخ يشهد بأنه كلما اجتاحت
الشهوات أمة أدى بها ذلك إلى الضلال والدمار ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ .
هذه سنة من سنن الحياة ، والأمة لا تنهار في يوم أو شهر أو سنة . . وإنما
تدرجياً وفي سنوات . .

وقد يخطر لنا هذا التساؤل : ألا يكفي صلاة واحدة في النهار ؟
إن تكرار الصلاة خمس مرات في اليوم يعطي - في الحقيقة - آثاراً
عظيمة . . أذكر بعضها :

١ - التعويد على النظام وضبط المواعيد .
٢ - وهذا يجعل الإنسان يستفيد من وقته أكثر ، لأنه مقسم بهذه
المواعيد .

٣ - يتجدد النشاط الجسماني والنفساني للإنسان في سائر اليوم ،
لأن حركات الصلاة عبارة عن رياضة سهلة لكافة الناس جامعة لجميع
الأعضاء في البدن ، وموزعة على جميع أوقات النهار . ومن المعروف
أن الإنسان حين يستمر في عمل ما بعض الوقت يحتاج إلى حركات
بسيطة يلين بها جسمه ويجدد نشاطه . . هذا فيما يتعلق بحاجة
الجسم . . فكيف بحاجة النفس ؟ !

وأذكر في هذا المجال حادثة ذكرت لي : أن مراقباً فنياً أجنبياً كان
يتولى الإشراف على عمال معمل الإسمنت في دمر (إحدى القرى المحيطة
بدمشق) . وكان منهم من يقطع العمل ليصلي . . فتضايق الخبير في
البداية . . ولكنه مع المراقبة انتبه إلى أن الذين يصلون يعطون إنتاجاً
أكبر . . وهذا قد يفسر بتجدد النشاط وبإخلاص المصلي لعمله .

٤ - كي يظل الإنسان في يقظة نفسية ، فلا يغفل أثناء بيعه أو عمله أنه سيقف أمام الله بعد قليل .

٥ - التحويل الفكري في علم النفس يعتمد على التكرار . . مثلاً : الإيحاء أو التغيير للأفكار بالتكرار . . وحين اكتشفوا ذلك سخروه لمصالح دنيوية . . . كما في الدعاية حيث أسلوبها المكرر . . وكذلك ترديد الشعارات يستعمله أصحاب المبادئ لغرسها في النفوس .

وأخيراً أقول : وقفت هذه الوقفة عند الصلاة - مع أنها غير كافية - لشعوري بالحاجة إلى معرفة الحكم والحكمة . فالمؤمن حين يعرف الحكم يطبقه سواء عرف الحكمة أم لا . ولكن الله سبحانه يطلب منا معرفة أكثر . ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾^(١) . والمؤمن الذي يعرف بعض الحكمة يكون تطبيقه أوعى وأحسن ويتمتع بالثبات أكثر ، فلا يتلاعب به الناس بأفكارهم وأهوائهم . ﴿ يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾^(٢) .

ب - الصفة الثانية : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾

معنى الزكاة لغة : التطهير . قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾^(٣) أي طهرها . فالتزكية : التطهير . ومعناها شرعاً : نسبة معينة من المال الذي يحول عليه الحول تنفق على الفقراء . والإسلام عالج مشكلة الفقر بعلاجين :

١ - بالتكافل الاجتماعي : وهو أمر أوسع بكثير من الزكاة

(١) سورة طه ، الآية ١١٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

(٣) سورة الشمس ، الآية ٩ .

المفروضة . . ويساهم فيه الأفراد (فردي) : « وفي المال حق سوى الزكاة » ، وفي حديث آخر : « على كل مسلم صدقة قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » (١) . .

كما يساهم فيه المجتمع ممثلاً بالمسؤولين : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » . أي توفير الضمانات المادية والمعنوية الكافية لأفراد المجتمع .

٢ - وبتفجير نشاط الإنسان بدفعه إلى الاعتماد على النفس : « لأن يغدو أحدكم ، فيحطب على ظهره ، فيتصدق به ، ويستغني به من الناس ، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك . فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى » (٢) .

ومن فوائد الزكاة :

- ١ - تزكية الفرد وتطهيره من الشح والأنانية .
- ٢ - تطهير المجتمع من الأمراض المادية (كالفقر والمرض . .) ، ومن الأمراض المعنوية (كالحقد والصراع الطبقي الذي قد يتحول إلى صراع دموي كما حدث في الثورة الروسية) .

وحين أتكلم في مثل هذا الموضوع وأعرض لذكر بعض ميزات النظام الإسلامي ألاحظ أننا نكتفي دائماً بمدح الإسلام . . ولكن ما نحتاج إليه هو إبراز الإسلام بصورة عملية . . فالمسلمون يمدحون الإسلام . . ولكن الناس ينظرون إلى واقعنا المتخلف .

أين حالة التكافل التي شبهها رسول الله ﷺ بالجسد الواحد إذا

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؟ . . أين هي هذه الحالة التي تشدق بها دائماً بينما تحكمننا الأنانيات !؟

إن غياب هذه الحالة وأمثالها إنما يرجع إلينا معشر المسلمين . . فالإسلام غير المسلمين - أي لتمييز بين المبدأ والتطبيق - فالتطبيق قد يوافق المبدأ وذلك في الأوقات المشرقة للحضارة ، وقد يخالفه أو يتعد عنه وذلك في مراحل انتكاس الأمة وتخلفها .

ولا ينبغي أن تفهم الزكاة من جانب مادي فقط . . وإنما : في العلم زكاة ، وفي الوقت زكاة ، وفي القدرة والطاقة زكاة . . ألم تر إلى حديث رسول الله ﷺ كيف ينبه إلى أنواع الصدقات المطلوبة !!

« كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (١) .

ج - الصفة الثالثة ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ :

اليقين عكس الشك والظن . فإيمان المحسنين بالآخرة عن علم ويقين . . والآخرة موضوع غيبي ، فكيف يجد العقل الدليل الكافي للوصول إلى درجة اليقين بها . . ؟

إن العقل يصل إلى الإيمان بالآخرة عن طريق الاستدلال . .
١ - أول نقطة يتعلق بها العقل عن يقين : أنه لا بد من خالق ، وهذا الخالق لا بد أن يختلف عن المخلوقات بصفات مطلقة أبدية . .

(١) متفق عليه عن أبي هريرة .

٢ - فالخالق حكيم عادل . . وتأمل نظام الكون الدقيق وخلق الإنسان وإحكام صنع المخلوقات . . بحيث يبدو الإحكام والنظام والدقة في كل الكائنات من حولنا : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾^(١) . هذا التأمل يجعل الإنسان ينزه الله سبحانه عن الفوضى والعبث .

٣ - ولكن حياة الإنسان على الأرض تفتقر إلى العدالة المطلقة . . ونجد فيها مهازل ومآسٍ . . فكم من مجرم مات ولم يكشف أمره . . وكم من محسن عذب وأهين . . وحتى حين يعاقب بعض المجرمين فكثيراً ما تكون العقوبة لا تكافئ الجريمة « قاتل العشرة يُقتل مرة واحدة في الدنيا » ! فهل يعقل أن تنتهي الحياة بهذا الشكل . ؟ ! إن الظماً إلى الماء دليل على وجود الماء ، وكذلك الظماً إلى العدالة دليل على تحققها يوماً ما : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾^(٢) . ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ! ألم يك نطفة من مني يمى . . ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ ! فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ ! ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾^(٣) .

فالآيات تجعل العقل يستدل تدريجياً على اليقين بالآخرة ، والإيمان بالآخرة شرط من شروط الإيمان لخطورة آثاره . . لأن السلوك نتيجة للأفكار التي يحملها الإنسان . والذي يملك اليقين بالآخرة يتميز بالإحسان في العمل ومراقبة الله في كل شيء . . أما من يشك ويظن ، فإن صور الحيرة والضياح والغفلة تنعكس على سلوكه . ولا بد لنا من تعهد هذا الجانب - من إيماننا - بالعناية . وما أحوجنا إلى مزيد من التدبر

(١) سورة القمر ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ١١٠ .

(٣) سورة القيامة ، الآيات ٣٦ - ٤٠ .

لما ورد في هذا الموضوع ، من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وكتابات إسلامية .

فالقُرآن تحدث عن الآخرة من حيث إمكانية الحدوث أولاً : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (١) .

ومن حيث كيفية الحدوث ثانياً : ﴿ إذا الشمس كورت . . ﴾ (٢) .
ومن حيث المسوّغ لحدوثها ثالثاً : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ (٣) .

ومن حيث حاجة الإنسان إلى الإيمان بها لتنظم حياته رابعاً : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ (٤) .

ولقد تحدث الكاتب « وحيد الدين خان » في كتابه « الإسلام يتحدى » عن الآخرة في باب خاص بعنوان « دليل الآخرة » ، وجاء بأدلة علمية على إمكانية الآخرة وضرورتها وحاجة الإنسان لها نفسياً وأخلاقياً وسلوكياً . . مما يلقي أضواء جديدة على هذا الجانب ، ويجدد ويذكي حرارة الإيمان بالآخرة عند المسلم . . يقول عن الآية : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٥) :

« وإمكان وقوع هذا لا ينافي العلم بالحديث . فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالي موجات في الهواء . . إن هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد بعد حدوثها للمرة

(١) سورة يس ، الآية ٧٩ .

(٢) سورة التكوير ، الآية ١ .

(٣) سورة طه ، الآية ١٥ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ٧ .

(٥) سورة ق ، الآية ١٨ .

الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى ، ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات . . أو بعبارة أصح عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى مع أنها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن بعد أن سلموا نظرياً بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر ، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال . . إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم . ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة . . ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان مسجل وهو يحاسب عليه يوم الحساب» (١) .

ويقول أيضاً : « إن المسافة الهائلة بين ما يحدث وما ينبغي أن يحدث ، تدل على أن مسرحاً آخر قد أعد للحياة ، وأنه لا بد من ظهوره » . . « إذا لم تكن هناك قيامة ، فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطغاة الطواغيت؟! . . كلمة كثيراً ما تخرج من شفتي مصحوبة بأنين مرير عندما أطلع الجرائد . فجرائدنا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم على الأرض . والصورة التي تحملها إلينا الجرائد رهيبة . . إنها تتكلم عن الاغتيالات والخطف والنهب والاتهامات الكاذبة والتجارة السياسية والدعايات الباطلة التي تتلاعب بالألفاظ . . إن هذه الجرائد تخبرنا كيف نكّل الحاكم الفلاني بمعارضيه الضعفاء باسم مصالح الأمة ودواعي الأمن القومي؟! وكيف سيطر الشعب على أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح . .!! وليست هذه الجرائد إلا حكايات لمأساة

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ٩١ .

الضعيف والقوي . . والسلطان والرعا . . !!

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحاً للمآسي والشيطنة والهمجية والقرصنة . . ثم لا يلقي الظالم والمظلوم جزاءهما؟! إن عالماً من هذا القبيل إعلان في حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله»^(١) . إن عدم الإيمان بالآخرة سوف يفرغ الحياة من محتواها . وما قيمة حياة لا ترى الهدف والمصير من ورائها . .؟!!

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

إنهم على بينة ونور . لقد حصلوا على الهدى من ربهم ، وهم المفلحون في الحياتين . إذ قد وصلوا إلى الصواب . . والوصول إلى الصواب . . هذا الذي ينبغي أن يدرس دراسة علمية بحيث نزن النتائج بدقة ونثبت أن : ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾^(٢) بالأرقام والإحصاء اللذين هما لغة العصر . هؤلاء المحسنون هم الذين يستفيدون من القرآن . . ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . . ﴾ .

المعرضون وجزاؤهم وجزاء المؤمنين

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

الحكماء المحسنون كانوا يتأملون الأمور ليفهموا أسرارها . كانوا

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ١٠٠ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٨ .

يتحركون بعلم .. وأما هؤلاء المعرضون فلا تشغلهم هذه الأمور ولا ينسجمون مع الكتاب .. ما لهم ولهذا الكتاب الذي يكلف العقل بالعمل ، والنفس بالسعي ..؟! إنهم عن السمع لمعزولون .. إنهم سادرون مشغولون بشيء آخر يحتويهم ويستهلك أعمارهم وطاقاتهم ..

والمعرضون على نوعين بحسب ما يذكر القرآن :

١ - جاهلون : ويمثلون الأكثرية ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ (١) .

٢ - جاحدون عن علم : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ (٢) . وكلاهما يسعى لصد الناس عن دين الله ويقاوم الدعاة إلى الله .. ولكن النوع الأول يمكن علاجه .. وعلى الداعي أن يعرف من أي نوع هؤلاء المعرضون ؟ فكثيراً ما تحل مشكلة الجاهل بنشر العلم . وأول خطوة في هذا المجال أن نجعله يدرك جهله ويعترف بنقص علمه ، وعند ذلك يصبح موقفه علمياً .. أما أن يجمع إلى جهله جهلاً آخر : وهو اعتقاده أنه يعلم ، فهذا الذي يعقد الأمر ويجعل الجاهل مضاعفاً .

﴿ لهو الحديث ﴾ : كثير من الصحابة - ومنهم ابن مسعود وابن عباس - يقولون عنه : هو الغناء .

وقتادة يقول : « بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق » .

وصاحب الظلال يقول عنه : « كل كلام يلهي القلب ويأكل الوقت ولا يثمر خيراً » .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة النمل ، الآية ١٤ .

فعبارة (لهو الحديث) : كلمة عامة تشمل كل شيء يضيع على الإنسان طريقه . وقد جاء في بعض الروايات : أن النضر بن الحارث كان يشتري الكتب المحتوية على أساطير الفرس وقصص أبطالهم ، ثم يذهب في طريق الزاهبين لسماع القرآن من رسول الله ﷺ محاولاً أن يجذبهم إليه ويشغلهم عن القرآن . فنزلت فيه : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . . ﴾ . ولكن النص أعم من هذا الحادث الخاص .

فعملية الشراء : مبادلة بين شيئين ، والآية تحدثنا عن الذين يشترون الباطل بمالهم أو وقتهم أو صحتهم . الذين يضيعون أعمارهم في اللهو والعبث . . وفي آية أخرى : ﴿ اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ (١) . . أليس هناك من يترك جلسة قرآن ويفضل عليها حفلة صاخبة أو جلسة لغو . . أو ساعة كسل . .؟! فهؤلاء يستبدلون آيات الله بثمرن بخس . . ﴿ اشترؤا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ (٢) .

ولكن ما الهدف . . ؟ أو ما العاقبة التي يصل إليها . . !؟

﴿ ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴾ .

إن الله تعالى يقرر هنا : أن الذين يحاربون دعوة الله ، إنما يحاربونها بغير علم . . فهم : إما أناس يدعون العلم ويصدقهم الجهال . . أو أن علمهم ناقص . . وربما يكونون قد وصلوا في بعض الاختصاصات المادية إلى درجة العلم . . ولكنهم في جوانب أخرى وعلوم أخرى ، يتصفون بالجهل . وينبغي الانتباه إلى نقطة نعاني منها

(١) سورة التوبة ، الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦ .

في هذا المجال ، فقد نقول : العلم يدعم الدين : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (١) ، ولكننا ما زلنا بسلوكنا نعبر عن خوفنا من العلم وعدم ثقتنا به . . وأكبر دليل أننا لم نتوجه بعد إلى البحث والدراسة بجد لنحلّ مشكلتنا . .

﴿ ويتخذها هزواً ﴾ .

يسخر من رسالة الله وآياته مع جهله . . فيا عجباً منك أيها الساخر ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ (٢) . .؟! فيهدده الله بعذاب مهين :

﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

في هذا تنبيه للإنسان أن لا يهاجم فكرة أو يسخر منها دون أن يكون عنده علم بها . وكثير من الذين يشرفون على التعليم يستكبرون ولا يرفقون بالمتعلمين ، ويعمدون إلى الهزء والسخرية من أفكار الناس وعقولهم . . إن العلم يقلل من السخرية . . لأنه يمنح صاحبه سعة الصدر وإدراك مراحل النمو ، والقدرة على استيعاب الأخطاء وقبول الأعذار . .

يقول محمد إقبال : « إن الإخلاص لله - في أسمى معانيه - هو خدمة الطبيعة الإنسانية » . وهيهات أن يخدم الطبيعة الإنسانية من يسخر منها ، فالسخرية لا تصدر عن قلب المحبين الراغبين في الخدمة ، بل هي صورة لثيمة ينبغي أن يتنزّه عنها المؤمنون ، لأنهم رسل الخير والمحبة للآخرين . . ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة الملك ، الآية ٢٢ .

خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ﴿١﴾ . . . اللهم
إلا في مواقف خاصة تقتضي التحدي في وجه الساحرين وإظهار الثبات
والاعتزاز بالمبدأ الذي أيقن المؤمنون بصحته . . كقول نوح عليه السلام
لقومه : ﴿ إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ (٢) .

وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَمْ يَسْمَعْهَا

صورة للإنسان الذي يصله الحق فيستكبر عن الانصياع والانقياد

له . .

كَانَ فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا

إن وسائل المعرفة (٣) موجودة عنده ولكنه لا يستفيد منها . فهو إما
جاهل يعطل وسائل المعرفة عنده ويوقف عملها ، ويقلد غيره فهو ضال -
بمصطلح القرآن - أو ظالم : حيث يستعملها لكنه يعطل نتائجها الجيدة
ولا يستفيد منها فهو مغضوب عليه .

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

سخرية من هذا المغرور المتكبر الذي كان يتعالى على آيات
الله .

وأكثر المسلمين اليوم عندما يسمع مثل هذه الآيات يطمئن ويشعر
بأن الكلام ليس عنه . . ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ (٤) !؟

(١) سورة الحجرات ، الآية ١١ .

(٢) سورة هود ، الآية ٣٨ .

(٣) وسائل المعرفة هي : السمع والبصر والفؤاد (بمعنى العقل) .

(٤) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

وهل تحررتم من التهافت على لهو الحديث وسفاسف الأمور؟!
هل تحررتم من الضلال والإضلال بغير علم . .؟! هل نزهتم
أنفسكم عن الاستهزاء مما تجهلون من الأفكار والعقائد . .؟!
وتلك آيات الله تتلى عليكم صباح مساء . . ولكن أين من
يسمع . .؟ وأين من ينصاع . .؟!
وبمناسبة الحديث عن جزاء الكافرين المعرضين يعرض جزاء
المحسين . . .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فطبيعة الإيمان أنه قوة دافعة ما تكاد تستقر في القلب حتى تدفعه
إلى العمل . . إذ سلوكنا ينبثق عما نحمل من أفكار . .

لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَلِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا

وهذا مقابل وعود المضلين الكاذبة . . الذين يشترون لهو الحديث
لإضلال الناس والتغريب بهم . .

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

العزیز : القادر على تحقيق وعده . . الحكيم : في الخلق وفي
الوعد وفي الوعيد وفي تقدير الجزاء العادل لكلا الطرفين .

صور من خلق الله

إن آية القدرة وآية الحكمة وبرهان الكلام السابق هو هذا الكون
الكبير الهائل . . ومن كان يشك في قدرة الله على البعث والحساب . .

ومن كان يشك في عدل الله وعلمه وحكمته . . فليُنظر ولتأمل في الكون من حوله . . هذا العالم الزاخر بالآيات . . فسيري السماوات القائمة على قانون ربها . . والأرض المضبوطة في مكانها . . وما بث فيها من مخلوقات . . والنبات أزواجاً وأشكالاً . . كتنوع الإنسان الذي منه المحسن والمعرض . . واللين والمستكبر . . كل له قانونه . . قانون إنساني وقانون طبيعي . . وآيات الله وقوانينه ليست هي آيات الكتاب وحده . . بل وآيات الآفاق والأنفس أيضاً . . .

١ - خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا^ط

أيها الإنسان تأمل في هذه القبة الزرقاء من فوقك والتي لا يدرك البصر لها نهاية ولا يرى لها أعمدة تثبتها . . لا بد أن يكون هناك رباط يشد بعضها إلى بعض ، أعمدة غير مرئية لنا - الجاذبية مثلاً - تأمل في السموات ، وانظر إليها كأنك تراها لأول مرة فإن العادة والإلف قد أبعدانا عن الخشوع أمام القدرة التي لا تحد . . الماثلة في هذا الكون . إن كل نقطة من هذه النقاط المضيئة الصغيرة التي نراها سابحة في هذا الفضاء قد يبلغ حجمها أضعاف حجم الأرض . . النجم القطبي مثلاً يبعد عنا (٤٦٥) سنة ضوئية . . أي أن الشعاع عندما ينبعث من هذا النجم يصل إلينا بعد (٤٦٥) مليون سنة . . فأبي بُعد هائل . . !؟

وفي كتاب « الإنسان بين العلم والدين » يذكر كيف أن مجموعتنا الشمسية - أي الشمس والكواكب السيارة من حولها - هي جزء صغير من مجرتنا التي تسمى درب التبان ، والتي تحتوي على (١٠٠٠٠٠٠) مليون نجم ، وفي الكون من أمثال مجرتنا (١٠٠٠) مليون مجرة^(١) . . !!

(١) راجع كتاب (الإنسان بين العلم والدين) للأستاذ شوقي ابو خليل .

مسكين أيها الإنسان . . تغفل عن ربك وتدعي العلم بكل شيء
وتغتر بنفسك وتنسى أنك لا ترى مما حولك إلا القليل . . إن أنت إلا ذرة
سابحة في خضم لانهايي . ومع ذلك فهو في قبضة الله وتحت سلطانه .

٢ - وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

إن الله سبحانه وضع في هذه الأرض أسباباً وخصائص تمنحها
التوازن . . منها الجبال التي يشير إليها هنا بأنها رواسي تحفظ توازن
الأرض حتى لا تميد فيختل نظام الحياة عليها . . وتلقي بسكانها
جانباً . . الجبال هي الرواسي . . لها جذور في أعماق الأرض قد تبلغ
أضعاف ارتفاعها فوق سطح الأرض ، فكأنها تثبت القشرة الأرضية التي
يبنى عليها الإنسان : ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ (١) .

وقد يطلع الباحث في الجيولوجيا على مزيد حول الجبال
ودورها . . والمهم أن تفكر وتتأمل . .
من أنت أمام هذا الكون الهائل . . ؟! وكيف تتعالى عن طاعة الله
خالقه وخالقك . . ؟!

٣ - وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

الدابة : كل مخلوق حي يدب على الأرض : ﴿ والله خلق كل
دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على
رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع . يخلق الله ما يشاء ﴾ (٢) .

نحن أمام سر الحياة العظيم الموجود في كل دابة والمحير المعجز

(١) سورة النبأ ، الآية ٧ .

(٢) سورة النور ، الآية ٤٥ .

حتى في الخلية الواحدة . . ثم كيف تتعدد الأنواع من كل دابة ، فلا يستطيع الإنسان لها إحصاء . . وكل نوع قد ألهم الحياة التي تناسبه ، وزود بالوسائل التي يحصل بها على طعامه ، وأعطى السلاح الذي يدافع به عن نفسه . . حتى الحشرات الضعيفة قليلة الحيلة . . فالخنفساء مثلاً مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة تفرزها لرد عدوها . . والنحل والزنابير مزودة بإبرة تدافع بها عن نفسها . . وفي عالم الحيوانات تأمل القنفذ في أسلوبه في حماية نفسه وطريقة الحصول على طعامه . . وبينما زودت الحيوانات المفترسة بالعضلات القوية والأنياب الحادة . . خُصّت الماشية والأنعام بعملية الاجترار حتى لا يطول مكثها في المراعي وتتعرض للهجوم من قبل الذئاب أو غيرهم .

والأرانب والغزلان زودت بحواس دقيقة تشعرها بالخطر وأعطيت سرعة الجري . . والطيور لا تملك أسناناً للمضغ لكنها منحت القانصة التي تطحن الحبوب، وألهم الطير أن يلتقط بعض الحصى لتساعد القانصة في عملية الطحن . .

وجنين الإنسان تحيط به رعاية الله من كل جانب ، وقد أعدت له كل الوسائل في بطن أمه كي يحصل على ما يحتاج إليه ، ويكون آمناً من الأخطار . فإذا خرج إلى الدنيا فكيف يحمي نفسه من الجراثيم المبتوثة في كل مكان من حوله . . !؟

يفرز ثدي الأم في الأيام الأولى بعد الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الصفرة يحتوي على مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل من الأمراض . ومن تدبير الله أن كمية اللبن وتركيبه في ثدي الأم يتغير بحسب نمو الطفل وبالشكل الذي يناسبه .

- يقول الدكتور « خالص جلبي » في كتابه « الطب محراب الإيمان » : « إن الإنسان ليصاب بالحيرة أمام البساطة والتعقيد - في الوقت نفسه - لبناء الجسم . فهذه المواد الموجودة فيه لا تشكل أكثر من علبة طباشير وعلبة كبريت ومسمار صغير من الحديد وحفنة من ملح الطعام ومواد أخرى ليست ذات قيمة . . أما من حيث التركيب البيولوجي - أي كيفية خلق الله له - فلا يمكن أن يقدر بثمن . . والعجيب أن أكثر الناس يمرون بهذه العجائب مغمضي العيون مطموسي القلوب ، بينما يقفون مدهوشين أمام جهاز من صنع إنسان صغير بسيط التكوين حين يقاس إلى ما يحويه جسم الإنسان من معامل عجيبة ومخازن ومراكز للتوزيع ومحطات لاسلكية ترسل الأوامر وتستقبل الأحاسيس والمعلومات » .

٤ - وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

لا حياة على وجه الأرض بدون ماء . . وقد عرفوا وكشفوا بأن كل نبات له خلايا مذكرة وخلايا مؤنثة قد تجتمع في زهرة واحدة أو تفرق في شجرتين . . ولا توجد الثمرة إلا بعد التلقيح . . ووصفه بأنه (كريم) رفع للمخلوق يوحي برفعة الخالق وعظمته . .

وبعد هذه الانطلاقة المدهشة في رحاب الكون . . نتأمل مواضع الإعجاز ومواطن الجمال . . ودلائل القدرة التي لا تقهر . . والحكمة التي لا تجارى . . يختم الله الجولة بالتحدي المناسب الذي لا يملكون له جواباً :

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ

فيا حبذا لو توضع هذه الآية إلى جانب الأبحاث التي تدرس في

عالم المادة وعالم الحياة . وكم أثر في نفسي أن أرى صورة الغلاف
لكتاب « الطب محراب الإيمان » وقد وضعت هذه الآية تحت صورة الدماغ .

هؤلاء الذين تطيعونهم وتتركون أمر الله من أجلهم ماذا
خلقوا ..؟! هؤلاء الذين تخافونهم أكثر من خيفتكم من الله .. ماذا
فعلوا ..؟! ومن هم ..؟!!

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

إنهم ظالمون يعيشون في الضلال ، وأنتم تتبعونهم في غيهم ..
فيا حسرة على العباد ..!!

الفصل الثاني

لقمان الحكيم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
 يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
 لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ ۖ وَهُوَ يُعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
 لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
 وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ
 إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
 وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
 خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ
 بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُ
 بِالمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ
 مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
 مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مَخْنَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
 وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

نحن في هذا القسم أمام أضواء جديدة تلقى على موضوع افتتحت به السورة : ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ، ثم لم تمض منها بضع آيات حتى أشير إليه ثانية : ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ . فالحكمة موضوع هام ومقصود في هذه السورة .

حكمة لقمان ، شكره الله

في هذا المقطع يتحدث عن توحيد الله في العبادة والشكر له ، وعدم الشرك به بطريقة أخرى . . طريقة الحكاية وضرب المثل ليكون قدوة ، فالسورة تعرفنا الآن على شخصية ذات سمات فريدة .

لقمان الحكيم : قال بعضهم بأنه نبي ؛ ولكن عند جمهور السلف أنه عبد صالح آتاه الله الحكمة ، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره روايات منقولة عن الصحابة حول شخصية لقمان الحكيم . . أذكر بعضها لما فيها من عبرة وإن كانت تعبر عن اجتهادات الصحابة ولا يمكن اعتبارها حقائق تاريخية لا يمسه شك .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن قيس أنه كان عبداً أسود غليظ

الشفيتين مصفح القدمين . فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال له : ألسنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ، قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ ! قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني .

قال ابن جرير : عن خالد الربيعي : كان لقمان عبداً حبشياً نجّاراً فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . . فذبحها . قال : أخرج أطيب مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب . . ثم مكث ما شاء الله . . ثم أمره بذبح شاة أخرى وقال له : أخرج أحبّ مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب . . فاستغرب مولاه . . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أحبّ منهما إذا خبثا .

قال الأوزاعي : حدثني عبد الرحمن بن حرملة : جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله . . فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فقد كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر .

وأياً من كان لقمان فقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة ، ومضمونها ، الشكر لله : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ . وبهذا المقياس يوزن الناس ؛ بما عندهم من التقوى والحكمة . « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » (١) .

والحكمة : هي الفهم . . العلم . . معرفة العواقب . . القدرة

(١) رواه مسلم .

على اختيار أقرب ما يمكن إلى الصواب . . القدرة على اتخاذ الموقف المناسب واختيار أهون الشرين وأحسن الحسنين : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ (١) .

الحكمة : هي الرشد . . هي كشف الطريق الأسهل الموصل إلى العواقب السليمة والسير فيه . والقرآن يقول : ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ . . والتقوى هي الالتزام بأمر الله ابتغاء مرضاته . . فالذي يجمع إلى ذلك فهماً وإدراكاً بأن أمر الله هو الصواب ، يكون قد جمع الحكمة والتقوى .

وَلَقَدْ ءَايَنَّا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ

كأن الله تعالى يقول : الحكمة هي الشكر لله .

والشكر نوع من الواجبات . . والإنسان ينظر للحقوق أكثر للاستعجال أو الاستسهال . . لكن الآية هنا تحوّل الشكر من واجب إلى حق تتمتع به نفس الشاكر .

وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ

من يحسن لا ينبغي له أن يظن أنه يحسن لغيره . . وإدراك هذا حكمة .

وجدير بنا أن ننظر في حياة الأنبياء وغيرهم من المحسنين ، ونتأمل نهاياتهم وثناء التاريخ عليهم . . ولا ينبغي أن يفوتنا أهمية تعليق القلوب بالآخرة ؛ فما كل إنسان تنصفه الدنيا بعواقبها . والعاجلة قد تخدع :

(١) سورة الزمر ، الآيتان ١٧ - ١٨ .

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم
وبئس المهاد ﴾ (١) .

ولقد نزلت الآيات تمسح عن قلب محمد ﷺ الأسى والمعاناة من
تكذيب قومه وإيذائهم له برغم إحسانه لهم . . ﴿ والضحى . والليل إذا
سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف
يعطيك ربك فترضى ﴾ (٢) .

إن القرآن يحذرنا من الخداع الذي يقع فيه الفكر في موضوع
الظلم للنفس وإنقاذها . . إن من يسيء إلى غيره إنما يسيء إلى نفسه . .
﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ (٣) . . قالها للزوج الذي يسيء إلى
زوجته . .

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

فهو رصيد الآخرة يجمعه الإنسان لنفسه .

وصية لقمان لابنه

وبعد هذه المقدمة تعرض علينا الآيات وصية لقمان الحكيم لابنه ،
فهي مبرأة من الجهل لأنها وصية حكيم ، وهي مبرأة من الخداع والهوى
لأنها وصية أب لابنه . . وصية أنموذجية يتوفر فيها الإخلاص والصواب .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعِظُهُ

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٦ .

(٢) سورة الضحى ، الآيات ١ - ٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣١ .

ونحن قد تعودنا أن نطلق كلمة الوعظ على أحاديث الترغيب والترهيب وترقيق القلوب .. وكأنه لا علاقة له بالحديث العلمي المنطقي ..

فما الوعظ إذن .. ؟

إنه النصيح والتنبيه إلى عواقب الأمور ، والتحذير من الغفلة عن الثمار التي ستجنيها من وراء أعمالك .. ولعمري إن هذا يحتاج إلى علم . فما الموعظة التي قدمها لقمان ؟

إنه يمكن إيجاز هذه الموعظة بكلمات :

- ١ - لا تشرك بالله .
- ٢ - ووصينا الإنسان بوالديه .
- ٣ - وإن جاهداك لتشرك بالله فلا تطعهما وصاحبهما بالمعروف .
- ٤ - واتبع سبيل من أناب إلي .
- ٥ - أقم الصلاة .
- ٦ - وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر .
- ٧ - واصبر على ما أصابك .
- ٨ - ولا تصعر خدك للناس .
- ٩ - واقصد في مشيك .
- ١٠ - واغضض من صوتك .

١ - يَبْنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ

نحن أمام القضية الأولى التي دعا إليها الرسل كافة : التوحيد واجتناب الشرك بالله .. و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون

ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴿١﴾ . فما هو هذا الذنب العظيم الذي لا يغتفر . . ؟ !

إنه الشرك . ولقد بحثه بعض المفكرين وحددوا له جوانب ثلاثة :

١ - الخلق .

٢ - الحكم والتشريع .

٣ - إجابة الدعاء ودفع الضر .

وأكثر الناس في الماضي والحاضر كانوا يؤمنون بالله خالقاً ، ولا يشركون به في هذا الجانب . . وقد حكى عنهم القرآن : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله . . ﴾ ﴿٢﴾ ؟ !

لكنهم يشركون في الجانبين الأخيرين . ففي الماضي كان الحكم لزعماء القبائل وتقاليد القوم والعشيرة ولسدنة المعابد والكهنة والملوك . .

وفي الحاضر حصل تغيير إلى حدٍّ ما في هذا الجانب . إذ تطور الناس من الخضوع للأوثان إلى الخضوع للملوك والحكام . . إلى المناداة بأن الحكم للشعب وللمبادئ التي ترتضيها غالبية الشعب وهي (الديمقراطية) التي تعتبر أرقى وأعدل ما توصل إليه البشر حتى الآن .

أما مرحلة : ﴿ إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ﴿٣﴾ . .

فهي المرحلة التي لم يتوصل إليها علم أكثرية البشر . . ومن

(١) سورة النساء ، الآية ١١٦ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٨ . كما وردت أيضاً في سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٤٠ .

المؤسف أن هذا التخلف الذي شكنا منه يوسف - عليه السلام - في زمانه لم يحدث فيه ارتقاء حتى الآن . .

وكذلك كانوا يشركون في جانب التوجه في الدعاء والتماس دفع الضر . . . فتوجهوا إلى الأصنام التي كانت في كثير من الأحيان رمزاً لبعض قوى الطبيعة - كالرياح والمطر والخصب . . - وأحياناً تكون تماثيل لرجال صالحين يتبركون بقبورهم ويظنون أنهم واسطة بينهم وبين الله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾^(١) . يقصدون الأوثان أو القبور في حاجاتهم لأن هؤلاء سيتوسطون لهم عند الله بزعمهم . .

وهناك من بحث في الشرك الخفي . . ويقصدون به الرياء . . بحيث يخالط عملك مشاعر أخرى غير طلب رضا الله . وقالوا عنه : الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . . ويذكر أن ابن عمر قال لرجل تكلم بسوء عن الحجاج : لو كان حاضراً هل كنت تتكلم بذلك ؟ قال : لا . قال : كنا نعد ذلك من النفاق . . !!

وهذا مدخل خطير يتعلق بتمحيص النية . . و« إنما الأعمال بالنيات » . وقد ورد في حديث صحيح : أن أول من تُسعر بهم النار : عالمٌ ومجاهد وجواد . . لأنهم كانوا يريدون بأعمالهم ثناء الناس عليهم لا رضا الله وثوابه . . فلنحذر ولنصدق : هل الدافع إلى الدعوة والتعليم حب الظهور أو السيطرة والوجاهة بين الناس . . ؟ ! أم تريدون وجه الله . . ؟ ! إن من يريد وجه الله يحب كل العاملين في هذا المجال . ولا يهمه أن يسمع الناس منه أو من غيره . . وإنما المهم عنده

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ .

أن يعودوا إلى جادة الصواب ويهتدوا . .

ويمكن أن ننظر إلى الشرك نظرة أعمق . فهو في جوهره نتيجة التفسير الخاطيء للكون وقوانينه وطريقة سيره . . فلقد كان الإنسان يحاول أن يجلب الخير لنفسه ويدفع عنها الشر . . لكنه لم يكن يعرف الطريق الصحيحة . وكانت ترعبه كثير من مظاهر الطبيعة ، فيظن أنها هي الآلهة التي تضر وتنفع . . ومن ثم لجأ إلى عبادة قوى الطبيعة ، وحاول إرضاءها بتعذيب الذات وتقديم القرابين . . وأقرب مثال نذكره هنا : كيف كان أهل مصر يعالجون فيضان النيل بعروس النيل التي كانوا يقدمونها قرباناً للنيل في كل عام حتى يدفعوا الضر عن أنفسهم . . وكيف كتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بذلك عندما فتح مصر . . ونحن الآن ينبغي أن نتأمل : هل كان بالإمكان أن يفكر الناس في مصر ببناء السد العالي للتحكم في جريان النيل لو لم تنشر عقيدة التوحيد فتقضي على هذه الأفكار الخرافية . . ؟ ولقد ذكر « توينبي » مرة أهمية عقيدة التوحيد في هذا المجال ، وكيف أن الفضل يرجع إليها في كل ما حققه الإنسان حتى الآن من تقدم علمي و (تكنولوجي) . ولفهم ذلك تماماً نستطيع أن نقول : إن عقائد الشعوب كانت تفرض نوعية معينة من العلاقة بين الإنسان والكون ؛ إذ كانت تفرض أن الإنسان يرتبط مع الكون برابطة العبودية . ولا شك بأن هذه العلاقة الخاطئة كانت عائقاً في سبيل أي تقدم علمي . .

لكن الأديان السماوية جاءت لتعطي العلاقات السليمة ، وردت الأمر إلى نصابه بحيث صار الإنسان يرتبط بالله برابطة العبودية ؛ فالإنسان عبداً لله . وارتباط الإنسان بالكون هو التسخير ؛ فالكون مسخر للإنسان .

وعندها عرف البشر أن الله كرم الإنسان على سائر المخلوقات وأعطاه القدرة على التحكم بها وتسخيرها لمصالحه فهي مسخرة مذلة له . . وهو خليفة الله فيها . . عليه أن يكشف قانونها كي يعرف كيف يمسك بها ويسخرها للخير والتعمير . وحين نفقد الفهم السليم لقوانين الكون يسيطر الهوى . . والهوى حسير البصر لا يرى إلا العاجلة . . يتحرى فيها الأسهل والألد والأسرع . . ولا يعنيه أمر العواقب النهائية . . من أجل ذلك يقول تعالى :

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

لأنه تنكب للطريق السوي . . وظلم النفس : وضعها في غير مكانها وتضييعها عن هدفها . . ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . . ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (١) .

يروى البخاري عن عبد الله ، قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ (٢) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذلك . ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ » .

فرسول الله ﷺ ينفي هنا أن يكون الشرك هو الوقوع ببعض الأخطاء التي يتوب منها الإنسان عندما يكشفها . وإنما الشرك أن تخطيء في اعتقاد ما يضرك وينفعك . فترك أمر الله لأنك تظن أنه هو يضرك ،

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

وتفعل ما نهاك الله عنه لأنك تظن أنه ينفعك فذلك هو الشرك . .
وذلك هو الظلم في حق الله وحق النفس وحق العباد .

ومفتاح الأمر في مكافحة الشرك السائد في جنبات الأرض -
والمهيمن حتى على أرجاء العالم الإسلامي - هو أن تبدأ من نفسك
فتغيرها . . ﴿ كلاً لا تطعه واسجد واقترب ﴾^(١) . حرر نفسك أولاً ، ثم
ساعد الآخرين وحضهم على التحرر . و ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى
يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(٢) إن الآية بحد ذاتها توضح قانون التغيير للحياة
الفاسدة في الأمم . . ألا وهو العمل على تغيير ما بالأنفس .

لكن المسلمين جهلوا هذا القانون ، ولجؤوا إلى الثورة المسلحة
لتغيير أنظمة الحكم دون أن يمسوا حقيقة هذا الإنسان الذي أصبح
ارتباطه بالإسلام ضعيفاً . . ألسنت ترى إلى مسلم اليوم عند
زواجه . . ؟ ! أترأه يرجع إلى القانون الذي أمر الله به عند اختيار الزوجة
﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾^(٤) . وهل ترجع مسلمة
اليوم أيضاً إلى أمر الله في قبول شريك العمر ﴿ ولعبد مؤمن من خير
مشرك ولو أعجبكم ﴾^(٣) بل قد يمنعها أولياؤها إن رغبت هي بتطبيق
أمر الله في هذا المجال . . إن مجتمعنا يعطي الأولوية هنا لمزايا سطحية
وقشور براقية . . إنه الهوى ، وإن اتباع الهوى عن قصد أو عن غير قصد
فيه خطر كبير على إيمان الإنسان .

إن المؤمن حذر فطن ، ولكن كثيراً ما تأتي الأخطاء من أبواب

(١) سورة العلق ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

(٣) و (٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢١ .

الخير . . فمثلاً في مجال تلقي العلم وشهود مجالس الوعظ والتذكير . . غالباً ما نفقد العلاقة السليمة مع العالم أو المرابي ، فنحيطه بهالة من التعظيم والتقديس والتنزيه عن الخطأ حتى تصبح أقواله وأعماله قانوناً وحجة لا تقبل المناقشة . . وصدق رسول الله ﷺ : « ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى » (١) .

﴿ يا بني لا تشرك بالله . . ﴾ :

وكأن الوصايا تبدأ هنا من الأعم وتنتقل تدريجياً إلى الأخص . . فهي تبدأ بتصحيح النظر والفهم لمظاهر الحياة والكون والعلاقات التي تربط بينها . . ثم تأتي الوصايا الباقية لتشرح قوانين فرعية خاصة في عدة مجالات . . ونلاحظ أن الوصايا الثلاث القادمة تأتي من الله تعالى مباشرة :

٢ - وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلِيًّا وَهْنٍ

فهي وصايا من الله تضاف إلى وصية لقمان تكريماً له .
والوصية بالوالدين من الله تعالى في هذا السياق القرآني تضيء جلالاً على الموقف ومهابة . . والله يريد لهذه الوصية أن تكون أنموذجية مرتبة بالشكل المناسب ومتدرجة بحسب الأهمية . . والوصية بالوالدين تأتي في القرآن غالباً بعد الأمر بعبادة الله وعدم الشرك به . . ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ . . ولا نجد في القرآن وصية للوالدين بأولادهما . . اللهم إلا آية واحدة جاءت في سياق الأمر بالعدل في تقسيم التركة على

(١) ذكره « ابن كثير » في الجزء الخامس من « البداية والنهاية » من رواية النسائي ، وذلك عند الحديث عن خطبته ﷺ يوم النحر في حجة الوداع .

الأولاد ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ (١) .
وهل يحتاج الوالدان إلى وصية . . ؟ !

إن الإيثار غريزة في الآباء كما جاء في الحديث : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه » (٢) . وكما جعل الله الكون يتماسك بقوانين منها الجاذبية - أو المحبة - فإن نمو الحياة الإنسانية لا يحصل إلا بالإيثار . . ويتجلى ذلك بوضوح في الحياة العضوية حيث يمتص الجنين غذاء أمه ويأخذ كفايته ولو على حساب صحتها ، ويستمر الإيثار بعد ذلك في حياة الأبوين مع طفلهما . . يتعبان ليرتاح . . ويسهران لينام . . ويكدّان لتأمين أحسن وأفضل ظروف ممكنة له . فإذا كان الإيثار غريزة عند الوالدين فلا بد من التأكيد باستمرار على الولد بضرورة المعاملة بالمثل لضمان استمرار النمو في الحياة الاجتماعية . . ولعل أهمية هذه الوصية تبرز في هذا العصر أكثر ، لأن العناية الصحية جعلت نسبة الوفيات تقل وتنكمش وازدادت نسبة المسنين من السكان في الحضارة المعاصرة . . حتى باتت مشكلة تعاني منها حضارتهم وأصبحوا ينشئون مراكز للعناية بالمسنين تهتم بتأمين الخدمة والصحة والاستجمام ، لكنها لا تستطيع أن تقدم لهم الحنان والبر الذي فقده في أبنائهم . . فلم حدث هذا . . ؟ ! أليست المشكلة مشكلة قيم . . ؟ إن الحضارة المعاصرة غيرت أهداف الإنسان ، فالإنسان فيها يعمل من أجل مزيد من الرفاهية في الدنيا . بينما كان يكدح ويجد من أجل إعالة أولاده . . كانت معاني الإيثار كافية

(١) سورة النساء ، الآية ١١ .

(٢) متفق عليه .

لإعطائه القدرة على تحمل الرخص والكد من أجل العيال . . بل كانت تعطيه الرضا والهناء بهذا الكد . كان يحس بأنه يحقق ذاته كإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بالإيثار والبذل من أجل ترقية النوع^(١) . . وطبيعي أن الطفل الناشئ في أحضان الإيثار يتشربه ويتمثله في أعماقه . . لكن حضارتهم عندما قصرت الهدف على الرفاهية تفسخ الإنسان ، وترك خطأ الإيثار ، ففقد الأمومة بالأنانية . . ونشأ الأطفال في هذا الجو لا يعرفون إلا المال والحرص على التنعم . . وهكذا تفسخ الأبناء ، وضاع الشيوخ بعد ذلك . . فصار الأبناء يضعون آباءهم - حين يشيخون - في مصحات ومراكز للرعاية إذ لم يعد لوجودهم معنى في البيت - بحسب تصورهم - . إن فقدان الأمومة والأبوة أعطى بروزاً لمشكلة الطفل وحاجته إلى الرفق والعناية ، وهذا ما جعلهم يخصصون عام ١٩٨٠ للطفل . . والآن تبرز مشكلة الشيخوخة ولقد حاولوا حلها بمراكز الرعاية . . لكن فقدان الحب والحنان جعل الحياة تفقد معناها بالنسبة لهم . . فكيف سيعالجون الأمر . .؟! ذكر لي بعض الذين زاروا الولايات المتحدة الأمريكية أنهم سُئلوا بعجب : كيف لا تعانون من هذه المشكلة في بلادكم . .؟!!

وكان عجبهم كبيراً عندما ذكر لهم أن الجد والجدة لهما مكان أثير في الأسرة المسلمة والبيت المسلم . . لا يُستغنى عنه ولا يعوضه أحد سواهما . . فهما مصدر حكمة وحنان لكل أفراد الأسرة . . محبتهما

(١) يشترك الإنسان مع الحيوانات بغرائز تضمن له بقاء الفرد (مثل الجوع والبحث عن الطعام) . وبقاء النوع (الزواج والتناسل) ، لكنه يتفرد عنها بالدافع الأخلاقي الذي يحقق ترقية النوع كالإحسان والإيثار . وبدونه يشقى الإنسان ويفقد ميزته . وهذا ما أشار إليه القرآن حين وصف الجنين الإنساني في مراحلته الأولى التي لا يختلف فيها عن الجنين الحيواني ، ثم قال بعد ذلك « ثم أنشأناه خلقاً آخر . . » راجع سورة المؤمنون .

منقوشة في القلوب . . معززان مكرّمان . . يتحلق الكبار حولهما
بالرعاية . . ويتسابق الصغار إلى حضنها مشغوفين متلهفين إلى حكاياهما .

إن العالم الإسلامي برغم تخلفه الحالي عن الحضارة وعن قيم
القرآن أيضاً . . ما زال يحمل في أعماقه أثراً كريماً من وصايا قرآنه ونبيه
ﷺ . . « رغم أنف . . ثم رغم أنف . . ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند
الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » (١) .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في
عامين . . ﴾ .

إن الآية هنا تخصص دور الأم بالعرض وتذكر به خاصة . . فهي
التي حملته بمشقة وجهد ، يستمر ويتوالى في حمله ووضع وإرضاعه
وتربيته . . ومهما تكلموا عن الأم ودورها المقدس والمكانة الجليلة التي
ينبغي أن تتبوأها . . فليس هناك مبدأ أو نظام استطاع أن يرفع من مكانة
الأم ويعظم دورها وحقها كالإسلام . . فهي أحق الناس بالإحسان في
الصحبة . . ورسول الله ﷺ يكرر الوصية بذلك ثلاث مرات : « أمك ثم
أمك ثم أمك . . » .

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ

إرضاعه حتى الفطام في عامين . . ويذكر ابن عباس - كما استنبط
غيره من الأئمة - أن أقل مدة للحمل : ستة أشهر ، لقوله تعالى في آية
أخرى : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ (٢) ، بينما يحدد مدة الفصال
هنا بعامين .

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .

وتصبح الوصية فريدة من نوعها حين يطالب الإنسان بالشكر لله ،
ويقرن به الشكر للوالدين :

أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ

فأي تشریف وأي تعظیم . . !! ثم يذكر بالموقف العصيب بين يديه :

إِلَى الْمَصِيرِ

فلا مفر . . ﴿ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ فكيف تنسى وتغفل . . ؟ ! ألا ترتعد
فرائصك من هذا الموقف ؟ !

ويا أختي المؤمنة لا تنسي وأنت تقومين بواجب البر والشكر نحو
والديك أن تكوني عوناً لزوجك على بر والديه فتذكريه إن نسي وتساعديه
إن عجز . وكلنا نملك الكلمة الطيبة والبسمة المخلصة . . ونستطيع أن
نبذل الحب والتقدير . . هذه أمور لا تكلف كثيراً . . بل إن اللفتات
الصغيرة لها أثرها الكبير في هذا المجال لأنها تدل على المحبة والاهتمام
وتبث روح الرضا .

قرأت مرة خبراً - لفت نظري - يقول : « اعتاد جورج كوهان ولعله
أكثر الناس ازدحاماً بالعمل في برودواي أن يتصل بأمه هاتفياً مرتين كل
يوم ! أفتظن أنه كان ينقل إليها في كل مرة أخباراً جديدة ؟ لا . . ولكنها
لفتة بسيطة يظهر بها لأمه أنه يفكر فيها ، وأنه يريد أن يسعدها ، وأن
سعادتها عزيزة عليه قريبة إلى قلبه . . » (١) .

إن طفولة الإنسان طويلة المدى ، والله سبحانه وتعالى حين خلقك
سخر لك الوالدين لكي تلج الحياة الاجتماعية وتنمو في مدارج

(١) انظر كتاب « كيف تكسب الأصدقاء » ، ص ٢٧٧ .

الإنسانية . ومهما كان مستواهما من حيث الثقافة والفهم السليم لقوانين الحياة فقد أوصلا إليك الجهد الذي حصلاه والثقافة التي وصلا إليها . . إنهما يقدمان حصيلة خبراتهما . وهنا تبدو لنا الأزمة التي تعقد العلاقة بين الآباء والأبناء . . إن المفاهيم التي عاش عليها الآباء - سواء أكانت إيجابية أم سلبية - يتشبثون بها ويريدون أن يطبعوا ذريتهم بها . . لأن من طبيعة الشيخوخة صعوبة تغيير المفاهيم فيها . والقرآن هنا يشير إلى هذه الأزمة :

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

« جاهداك » تعبير عميق . . يصور الجهد الذي سيذله الآباء في طبع أبنائهم على ما كانوا عليه كي يسلكوا طريقهم ولا يخرجوا عن فهمهم . . وهم في كل ذلك يبتغون السلامة لأولادهم . . وإن الله تعالى لا يطلب منك أن تغيرهم ولكن ليكن سلوكك سليماً . .

إن الله الذي أمرك أن تطيعهما يعود فيأمرك أن لا تفعل . . إنه سبحانه يعلم أنه سيحدث سوء فهم وسوء استخدام للآية فيحيطها بالتحذير حين يجعلها مسبقة بالتحذير من الشرك ، ويجعلها متبوعة بأمر الأبناء بعدم طاعة الوالدين إن أمراً بالشرك . .

وكثير من الآباء يريد من أبنائه أن يترك بعض أوامر الله ويخضع لعادات الناس وأعرافهم . ويحتج الآباء بمكانتهم في القرآن ويستغلون فكرة غضب الوالدين بشكل سلبي معوق . . فهل نستسلم . . ؟ ! .

جاء في صحيح مسلم عن مصعب بن سعد عن أبيه : أنه نزلت فيه آيات من القرآن . . حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك

وأنا أمرك بهذا... قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها فجعلت تدعو على سعد. فأنزل الله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه... وإن جاهداك... فلا تطعهما﴾. ويروي الطبراني القصة عن سعد بن مالك: كنت رجلاً براً بأبي فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه... فقلت: لا تفعلني يا أمه فإنني لا أدع ديني هذا لشيء... فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت... ثلاثاً... حتى اشتد بها الجهد... فقال: يا أمه. تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء. فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي... فأكلت.

وتحدثنا سيرة ابن هشام عن قصة عجيبة لولد مؤمن بار بأبيه: عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول. وذلك أن أباه كان منافقاً يثير الفتن بين المسلمين. وفي غزوة بني المصطلق حدث شجار بسيط بين المهاجرين والأنصار على الماء... فانبرى عبد الله بن أبي يقول: أو قد فعلوها...؟ - عن المهاجرين - والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - ويقصد بذلك أنه هو الأعز ويستطيع أن يخرج الرسول ﷺ وأصحابه من المدينة - وعلم ابنه بذلك وأنه قد بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ فجاءه يقول: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل ابن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله... فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار... فقال ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا^ط

إن الأمر بعدم الطاعة لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والإحسان ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ . وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر تزورها أمها في المدينة وهي مشركة فتسأل رسول الله ﷺ : أصل أمي وهي مشركة . فيقول ﷺ : « صلي أمك » .

إن الله تعالى ينهاك عن أن تغير نفسك نحو الباطل من أجل والديك . . . كذلك لا يفترض فيك أن تغيرهما . . . إنه يطلب منك موقفاً وسطاً تتحاشى فيه الخطأين . . . إنه امتحان لك . . . كيف تستطيع أن تصبر بمعروف على أمرهم إياك بما تكره . . . !! إنه تدريب على الصبر والتعامل بالمعروف حتى مع الذين يخالفونك في العقيدة . . . وكل إنسان - إلا ما ندر - يستطيع أن يتعامل بمعروف مع من يتفق معهم في وجهات النظر . . . لكن التعامل بالمعروف مع من يخالفك في الفكر والدين . . . هذا لا يقدر عليه إلا الصابرون ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾^(١) . . . وهنا يظهر حسن الخلق . . . وهو أثقل ما يوضع في ميزان المرء يوم القيامة . . . ولعمر الله ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ كما يقول الله في ختام هذه الوصايا .

إن القرآن يعلمنا أن نكرم الجانب الإنساني في الإنسان مهما كان فكره وسلوكه . . . ونحن نحب الطفل مهما كان قدراً أو جاهلاً . . . ونحتمله ونعذره ونشفق عليه مهما أخطأ . لأننا نعرف أن ذلك هو مبلغه من العلم . . . فلم لا نفعل هذا مع الكبار أيضاً فنعذرهم حين يخطئون ونحبهم ونحتملهم . . .؟! ولولا التغاضي عن الأخطاء والقدرة على

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٥ .

احتمال الآخرين لقضي على الحياة الاجتماعية والإنسانية . .
 إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 ولا يندم الإنسان قط على كلمة غضب كتمها . . لكنه يندم كثيراً
 على التي أفلتت منه . . وبعد . . فليس معنى ذلك أن لا نهتم بتغيير
 المفاهيم الخاطئة عند الوالدين . . فهما أولى الناس ببرنا وسعيانا
 لإنقاذهما من غضب الله وعذاب السعير . . لكن هذا يحتاج الى قدر كبير
 من التلطف في التعريف بما يسخط الله . . إن هذا يحتاج الى قدر كبير
 من الإخلاص والصواب . . وأتخيل هنا إبراهيم عليه السلام يتودد الى
 أبيه خفيض الجناح يحبب إليه طريق الرحمن مشفقاً عليه أن يمسه الشقاء
 والعذاب :

﴿ يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً . . ؟ !
 يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً .
 يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبتِ إني
 أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . . ﴾ (١) .
 وحين يأتيه رد أبيه فظاً خشناً : ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا
 إبراهيم ؟ ! لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً ﴾ (٢) ، يتلقى الوعيد
 والطرده من أبيه بحزن وإشفاق عليه فلا يملك إلا أن يودّع أباه في وداعة
 وثبات : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً .
 وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوربي ﴾ (٣) . ولا بد من الانتباه
 الى جانب آخر في قضية الإحسان للوالدين . . وهو أن الإحسان يكون
 على حسابك لا على حساب حقوق الآخرين . فلا يجوز لك أن تهضم
 حقوق الآخرين بدعوى الإحسان للوالدين . . ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا

(١) و(٢) و(٣) سورة مريم ، الآيات ٤٢ - ٤٨ .

قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً ﴿١﴾ . فلا بد من أن يشهد بالحق ولو على والديه وإلا كان آثماً ظالماً . . فالإحسان أن تكون أنت ومالك لأبيك . . لا أن تكون حقوق الآخرين لأبيك .

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ

كقوله في سورة الكهف : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . . ﴾ (٢) . وهذا خلافاً لما يوصي الناس به أبناءهم بأن لا يخالفوا مألوف الناس . . وأن يتبعوا أعرافهم ولو كانت تخالف الشرع . حتى صار المثل الشائع « والبس كما يلبس الناس » قانوناً يتحكم في رقاب الجميع . . !! .

ولقد أمر رسول الله ﷺ بالتزام جماعة المسلمين وعدم مفارقتهم . . ولقد فسر العلماء ذلك بأنه أمر بالتزام من يمشي بحسب القرآن والسنة ولو كان فرداً واحداً فهو الجماعة . .

﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ . .

ولو كانوا قلة . . واعتبرهم الناس غرباء فطوبى للغرباء حين ذاك . . لأنهم يصلحون برغم فساد الناس .

عن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ » قال : ما أعددت لها

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٤ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله . قال :
« أنت مع من أحببت » (١) . .

وصدق رسول الله ﷺ . . « المرء مع من أحب » (٢) . . فهو إن
أحب القرآن عاش معه ، وإن أحب رسول الله ﷺ لزم سنته . . وإن
أحب المؤمنين صحبهم . . وإن أحب الفاسقين لم يستطع أن يترك
مجالسهم . . ولهذا يحشر الإنسان يوم القيامة مع من يحب . . وصحبة
الفاسقين لا تجر إلا الندامة ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا
المتقين ﴾ (٣) ، واتباعهم لا يثمر إلا الحسرات : ﴿ إذ تبرا الذين أتبعوا
من الذين أتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين أتبعوا
لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا . . كذلك يريهم الله أعمالهم
حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٤) .

و « إنما مثل المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ
الكير ، فحامل المسك إما أن يُحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد
منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً
منتنة » (٥) .

وتذكروا نهاية المطاف . .

ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

وتعود بنا الآيات إلى لقمان وهو جالس إلى ابنه يعظه بإشفاق وحنو

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .

(٤) سورة البقرة ، الآيتان ١٦٦ - ١٦٧ .

(٥) متفق عليه . ومعنى يحذيك : يعطيك .

فيذكره - قبل أن يتابع وصاياه - بعلم الله المطلق ودقته في الحساب .

يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

إن كانت السيئة والحسنة بمقدار حبة الخردل . .

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ

يقول ﷺ : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (١) .

أَوْ فِي السَّمَوَاتِ

التي تظهر فيها النجوم المضيئة الضخمة بمقدار نقطة . . فكيف تظهر فيها حبة خردل ضائعة . . !؟

أَوْ فِي الْأَرْضِ

تائهة بين ترابها وحصاها . .

يَأْتِ بِهَا اللَّهُ

والإنسان يغدر الغدرة ويخفيها فلا يعلم بها أحد . . لكنه ينصب له راية يوم القيامة تفضحه على الملائكة . . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٢) .

ولقد ضرب رسول الله ﷺ لنا مثلاً كيف يتلقى الله الحسنات فيرببها للعبد كما يربي أحدكم فلوه - أي مهره - فكيف يغيب عن أذهاننا أن هناك أشياء كثيرة من الأعمال الصغيرة توضع في الميزان في

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤٠ .

الآخرة . . يمكن أن نفرح بها وتكون بها النجاة . . أو العكس . .

ورسول الله ﷺ ضرب لأصحابه مثلاً حين كانوا في أرض فلاة ،
فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا
سواداً وأججوا ناراً . .

وقال ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل
حتى يهلكنه » (١) . و « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك
في إناء المستسقي . . ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٢) .

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

يدرك اللطائف . . ولا تخفى عليه خافية . .

واللطيف هو الذي يحول جو المشاحنة الى الهدوء . والله سبحانه
وتعالى يعلم دقائق الأخطاء والمخالفات لكنه يُلَطِّفُ النتائج . . ﴿ ولو
يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة . . ﴾ (٣) . ومن لطفه
سبحانه أن يجازي السيئة بمثله ، لكن الحسنة بعشرة أمثالها ويضاعف
الله لمن يشاء . .

يَبْنِيْ أَقْرَبَ الصَّكْوَةِ

ها نحن أولاء نلمس بوضوح من خلال الوصايا كيف أن الآيات
تحدد نوعية العلاقة بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والناس من
حوله . . أنت مع الله عبد فالزم حدودك واسجد واقترب .

(١) راجع تفسير الحافظ ابن كثير لسورة الزلزلة .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) سورة النحل ، الآية ٦١ .

والأمر بإقامة الصلاة هنا يدل على فرضيتها في الأديان السابقة وعلى أن لها شكلاً محدداً - كما توحى بذلك كلمة (أقم) - والصلاة نوع من التدريب على الانضباط والصبر : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ (١) . . وإن النفس لتنازع الإنسان صلاته وتتفلت . . وهو يجاهدها . . ويتربص بها . . وينتصر عليها . وهذا الجهاد اليومي يعطيه قدرة الانتصار على نوازع الفحشاء والمنكر . . وإن هذا الصبر والنصر اليومي لهو أشد من صبر ساعة في ميدان القتال . . « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » (٢) .

٦ - وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ

الآيات تنتقل بتركيز مدهش بين تحديد الصلة مع الله والصلة مع الناس . . فلقد بدأت الوصايا من الأساس العقدي الذي لا بد من تغييره قبل كل شيء : توحيد الله وطرح الشرك جانبا . . ثم انتقلت إلى أهم العلات الاجتماعية شأناً : الصلة مع الوالدين ، ثم الصلة مع المؤمنين ، ثم عادت مرة أخرى إلى التأكيد على الصلة مع الله بالسجود وإعلان العبودية له . . والآن تعود الوصايا إلى الجانب الاجتماعي لتحدد الصلة الإيجابية مع الناس وتحذف السلبيات . . وإن هذا ليوحي بأهمية الجانب الاجتماعي في الإسلام . . وكأنه يقول لنا : إن القيام بهذه الصلوات الاجتماعية المحددة عبادة مفروضة يؤجر العبد عليها شأنها شأن الصلاة . . فلا تشوهوا الدين ، ولا تقطعوا أوصاله حتى تقصروا سلطانه

(١) سورة طه ، الآية ١٣٢ .

(٢) رواه مسلم .

على رقعة صغيرة لا تستوعب إلا الصلاة .

أمر آخر يؤكد لنا هذا الربط المحكم في الآيات بين العلاقتين . . .
إنه يشير بوضوح إلى الصلة الوثيقة بين العلاقتين ، فإذا انقطعت الأولى
اختلت الثانية .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله حين تحدثت عن الإحسان من
جذوره ، وعرفته على أنه علاقة مع الله قبل أن يكون علاقة مع الناس . .
« أن تعبد الله كأنك تراه . . » فإذا فقدت هذه الجذور ، فمن أين تنبت
شجرة الإحسان . .؟! والبشرية حين استغنت عن العلاقة الأولى مع
الله . . خربت العلاقة الاجتماعية الكريمة التي يحلم بها البشر . .
فتحولت من العدل والإحسان إلى العلو والاستكبار . . برغم أنف ميثاق
الأمم المتحدة وحقوق الإنسان . . وانظر إلى أمريكا والدول العظمى
الآن كيف تعارض في ترشيح مندوب تانزانيا ليشغل منصب الأمين العام
لهيئة الأمم المتحدة دون أن يكون لديها أي مسوغ قانوني . . اللهم إلا
كونه مسلماً ينتمي إلى عالم المستضعفين .

ثمة ملاحظة أخرى نذكرها حول ترتيب الوصايا . . فهي تبدأ
بإلزامك قبل أن تحاول دعوة الآخرين . . غير نفسك وعلمها وألزمها . .
ثم حاول مع الآخرين . . وهذا يعطيك أقوى ضمان لنجاح دعوتك
وتعليمك .

﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ :

والمعروف ما تعارف الناس على فضله والمنكر عكسه . . هذا
تعريف المعروف بشكل عام ، لكنه غير كاف . . لأن الناس قد يأتي
عليهم زمان يتعارفون فيه على المنكر بتأثير الهوى والشهوات . . فلقد

كان الرومان يتسلون بمشاهدة مصارعة العبيد حتى الموت . . ومرت على البشرية أزمان كانت تستسيغ فيها أكل لحوم البشر . . وما زالت حتى الآن بعض أنواع الوحشية - كمصارعة الثيران والمصارعة الحرة - تعتبر رياضة متعارفاً عليها . . !!

ودارس التاريخ يدرك أن الحضارة في دور الشيخوخة يضعف فيها تأثير الفكرة - أو العقيدة - ويصبح المحرك الأساسي هو الغرائز ، فهو الذي يحدد المعروف والمنكر . . لذلك يحتاج الإنسان إلى مقياس آخر - غير العرف الاجتماعي - يُعينه في تحديد المعروف والمنكر . . ولقد هُديَ الإنسان بالهدى (القرآن) ، وهو الذي حدد المعروف القرآني : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى . فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . . ﴾ (١) .

ورؤية التاريخ - أي العواقب والعلم بها - تقدم شهادة لصالح القرآن ، وتثبت أن ترك المعروف وإتيان المنكر حسب المفهوم القرآني هو الذي أهلك الأمم السابقة .

والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معناه السعي إلى تغيير الثقافة ، لأن الثقافة هي مجموعة المفاهيم والأعراف التي يتشربها الإنسان من مجتمعه منذ طفولته . . وتلك عملية لا تكفي فيها جهود فرد بل تحتاج إلى جهود البشرية ، لذلك عقب على الآية بقوله : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . والعملية برغم ضخامتها ضرورية لتحقيق نمو تصاعدي للبشر . . والموضوع لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه صعب مستحيل . . ولا على أنه سهل ميسور . . لكنه يحتاج إلى جهد

(١) سورة طه ، الآية ١٢٣ .

مكافىء . . وشروط ينبغي دراستها وتحقيقها .

ولقد تأمل شيخ الإسلام ابن تيمية موضوع الأمر بالمعروف وشروطه في كتابه : « الحسبة في الإسلام » ، وفيه فوائد هامة أقتطف منها بتصرف :

لا يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا كان خالصاً لله وصواباً . . يقول عمر في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . ويقول عمر بن عبد العزيز : من عبّد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . .

● أما توفر الإخلاص فهو أساسي ، لأن الأعمال بالنيات . وكثيراً ما يكون الدافع إلى الأمر والنهي حب الظهور والتعالم أمام الناس . . أو الحسد والبغض . . وهذه مشاعر خفية تلتبس علينا وتحتاج إلى تمحيص . . ويعيننا على ذلك التزام النجوى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أي الحديث مع المأمور على انفراد - . . ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ . . ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (١) . . فإن النجوى هنا تدل على إخلاص أكثر ، وتحمي العمل من متهاتات الرياء ، ونتائجها أسلم بحيث لا تأخذ المأمور العزة بالإثم ولا يشعر بالفضيحة والتشهير ، فتجعله أقرب إلى العودة للحق . أي أن النجوى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقق إخلاصاً وصواباً أكثر . .

● وأما جانب الصواب فيمكن أن أذكر ملاحظات فيه :

يذكر ابن تيمية أن للأمر بالمعروف ثلاثة شروط : شرط قبل الأمر ،

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤ .

وشرط أثناء الأمر ، وشرط بعد الأمر .

١ - شرط قبل الأمر وهو العلم ، وهو على نوعين :

(أ) علم بالمعروف والمنكر . . علم بما يصلح الناس وما يفسدهم . . أي دراسة آيات الكتاب وسنة رسول الله ﷺ ، ودراسة آيات الآفاق والأنفس . . وكما أشرتُ قبل قليل إن المقياس الذي يرجع إليه البشر لمعرفة المعروف والمنكر هو القرآن والعلم . . العلم بعواقب الأمور . . ودراسة التاريخ تعطي الرؤية الواضحة للجوانب التي تعوق نمو البشر وتجعلها تضحل وتذهب جفاء : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾^(١) . مثل انحسار فكرة النازية والقومية عن الحياة .

(ب) العلم بحال المأمور، ومن أي نوع هو؟ هل يفعل المنكر عن جهل . . أم عن ظلم . .؟ وما البيئة والظروف التي عاش فيها . .؟! وما الجوانب التي تؤثر فيه . .؟!

٢ - شرط أثناء الأمر : وهو الرفق . . و « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه »^(٢) . و « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف »^(٣) .

٣ - شرط بعد الأمر : وهو الصبر . . إذ لا بد أن يحصل له أذى من الأمر والنهي فعليه أن يصبر . ولذا قال في وصية لقمان بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ .

(١) سورة الرعد ، الآية ١٧ .

(٢ ، ٣) رواه مسلم .

فهذه شروط ثلاثة نحتاج إليها قبل الأمر ومعه وبعده ، وإن كنا نحتاج إليها كلها بشكل عام في كل مرحلة ، إذ العلم يحتاج إلى صبر لتحصيله . . والصبر يحتاج إلى علم ينميهِ . .

ويذكر أيضاً ملاحظات تتعلق بجانب الصواب في الأمر والنهي منها :

١ - إن أول ما نزل من القرآن : في التوحيد والوعد والوعيد كما جاء في كلام عائشة رضي الله عنها : « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنى أبداً » (١) . . فينبغي على الأمر أن يراعي هذا الترتيب وينتبه إلى الأساسيات قبل الفرعيات . .

٢ - يحلل النفس الإنسانية ويقول : إن النفوس لا تصبر على المر إلا بشيء من الحلو . فهي تكره النقد وتكره من يشير إلى أخطائها . . فلو بدأ الأمر بذكر بعض الحسنات في المأمور ، ثم انتقل إلى الخطأ ومحاولة تصحيحه لكان هذا مقبولاً أكثر .

٣ - يخطيء في هذا الموضوع فريقان من الناس :

أ - فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي إما بسبب التأويل الخاطيء للآية : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (٢) . . وقد رد عليهم أبو بكر الصديق فقال : يا أيها الناس إنك تقرؤون هذه الآية ،

(١) صحيح البخاري .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (١) . والاهتداء المشار إليه في الآية : ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ إنما يتم بأداء الواجب . فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يضره في الآخرة ضلال الناس . . أما في الدنيا فقد يضره ضلالهم : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (٢) . لأن قانون الدنيا أن النتائج تأتي بحسب الأثرية - وهذا ما نعبّر عنه أحياناً بأن الجزاء في الدنيا جماعي وفي الآخرة فردي - وذلك ما أشار إليه ﷺ عندما سألته أم المؤمنين زينب : أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ : « نعم إذا كثر الخبث » (٣) .

أو أنه يترك الأمر والنهي شعوراً بالاستصعاب ، ويقول : لست في هذا المستوى من العلم ، ولا تتوفر فيّ شروط الأمر بالمعروف . . ونقول لصاحب هذا القول : قولك غير صحيح . . لأنك مطالب بالأمر والنهي ، ولا تعذر عند الله بترك الأمر لأنك تجهل . . بل ينبغي أن تتعلم وتجتهد لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ (٤) . فبالأس لا نصل . . وبالإهمال لا نصل . . ولا يقبل منا أن نقول : لا نعرف كيف نغير . . فالواجب أن نتعلم . . وحتى لا نشعر أننا أمام باب مسدود نتذكر قول النبي ﷺ : « إذا اجتهد فأخطأ فله أجر . . » . . وبالممارسة تتكون الخبرة . . يقولون :

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٥ .

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٧٩ .

إن الخبير هو الذي ارتكب أكبر عدد من الأخطاء وأقول : - لا يشترط هذا - بل الخبير هو الذي يستفيد من أخطائه . . لأننا إذا استطعنا أن ندرك سبب فشلنا في التغيير وتحويل الناس من المنكر إلى المعروف تحوّل الفشل إلى نصر واستطعنا أن ننجح في مرة ثانية .

ب - وفريق يريد أن يأمر وينهى مطلقاً من غير فقه وحلم وصبر .

٤ - ينبغي إعمال الفكر في الموضوع . فإن كان الأمر أو النهي يُفوّت من المصالح أو يحصل بسببه من المفساد أكثر . . لم يكن مأموراً به بل يحرم القيام به إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته . .

٥ - الصور التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »^(١) . . بعضهم فسرها أن الإنكار بالقلب للمستضعف ، والإنكار باللسان للعلماء ، وباليد للحكام . . لكن كل إنسان مهما كان مستضعفاً يستطيع أن يأمر وينكر ضمن دائرة معينة « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »^(٢) . . ولكن الفهم الخاطيء يعلق موضوع الأمر والنهي بالسلطة . ويقول : أنا لا أملك السلطة . . وظروفي لا تسمح . . بينما نجده في دائرة سلطته لم يغير شيئاً . .؟! فليس الموضوع موضوع ظروف . . وإنما عطالة وعجز فكري . . وكلنا نحتمك بنسبة من الأطفال يومياً عندهم استعداد للسمع والطاعة ولكننا نعجز عن إعطائهم أسس المعروف القرآني بشكل يعطيهم توازناً أمام انهيار المجتمع . .

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

يقول ابن تيمية : إن فعل القلب يجب أن يكون كاملاً ، وفعل
البدن بحسب قدرته - أي بحسب ما تسمح ظروفه وبحسب ما يقدر
النتائج - وعند ذلك يعطي ثواب الفاعل الكامل ؛ وبعبارة أخرى يمكن أن
نقول : إن الإنكار بالقلب يمثل مرحلة المعرفة للمنكر والمعروف وكرهية
المنكر وحب المعروف . . أما الإنكار باللسان فهو مرحلة التعليم ،
ويحتاج إلى الرفق والحكمة . . ثم تأتي مرحلة الإنكار باليد أو التغيير
العملي وهذا يحتاج إلى مقدرة . . وكل مرحلة تحتاج إلى سابقتها وكأنها
تأتي نتيجة لما قبلها . . فنحن لا نتوصل إلى القدرة على الإنكار باللسان
حتى نقطع مرحلة الإنكار بالقلب . . ولا نتوصل إلى التغيير الفعلي حتى
نقطع المرحلتين السابقتين . . إن تغيير ما بالقوم لا يتم حتى نغير ما في
الأنفس . . والإنسان حين يقوم بعمل ما في وسعه ، يتوصل في المستقبل
إلى ما لم يكن يستطيعه . . وهذا ما يعبر عنه بأن استخدام الوسائل
المتاحة يكون من آثاره المباركة أنه يفتح أمامك مجالاً لاستخدام وسائل
جديدة لم تكن تملكها . . ولقد قالوا : من عمل بما علم أورثه الله علم
ما لم يعلم . . وكل إنسان يستطيع أن يقوم بالمرحلة الأولى ثم الثانية . .
فلا أحد يمنعك من أن تتعلم ثم تعلم . . وهذا يعطي نتائج مباركة . .

٦ - يقول ابن تيمية : « يذنب الرجل أو الطائفة . . ويسكت
آخرون عن الأمر والنهي - ويقصد بهم العلماء والمصلحون - فيكون ذلك
من ذنوبهم . وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً عنه فيكون ذلك من ذنوبهم
فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشور » .

نحن الآن أمام تحليل علمي لأسباب حدوث كثير من الفتن في
التاريخ . . وابن تيمية يرد ذلك إلى فقدان الصواب في موضوع الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر . . إن العلماء والمصلحين يمثلون جهاز

الرقابة في المجتمع ، وإن أي خلل يطرأ على هذا الجهاز يؤدي إلى أزمات وفتن اجتماعية . . ولنا أن نتأمل ذلك في تاريخنا . . أخطاء الأمويون - مثلاً - في نظام الحكم . . فكيف واجه الناس خطأهم !؟!

لا نستطيع أن ننكر أن طائفة من العلماء أنكرت عليهم وقامت بأفضل الجهاد « كلمة حق عند إمام جائر »^(١) ، ومنهم سعيد بن المسيب . لكن عددهم لم يكن كافياً لرد الأمر إلى جادة الصواب . . فسكت كثيرون وكان هذا من ذنوبهم . . وأنكرت طوائف متعددة برفع السيف وإعلان الثورة المسلحة . . ومنهم الخوارج فكان هذا خطأ آخر أدى إلى حدوث فتن كثيرة . . وحين نظر في ثورة الخوارج نجدها على الرغم من أنها كانت على شيء من الحق في مآخذها على الأمويين لكن المؤرخين وعلماء الأمة لم يسمّوا هذه الثورة جهاداً بل أخذت طابع أعمال الشغب . . ثم أنها لم تنجح في تغيير المنكر الذي ثارت لإنكاره . .

إن السكوت في غير محله إهمال وتفريط . . والإنكار العنيف المسلح أو البعيد عن الحكمة إفراط وغلو . . وكلاهما يفشل في التغيير . . بل ويؤدي إلى تعقيد الأمر وزيادة في الفتن . . وكم نبخس كلمة الحق أمام الظالم حقها ؛ مع أننا نحفظ قول النبي ﷺ عنها بأنها « أفضل الجهاد » .

وليس هذا خاصاً بنا في تاريخنا الإسلامي - بل إن الدارس المتأمل في أحوال الأمم يرى بوضوح المآسي التي نتجت عن الثورات العنيفة ضد الظلم . .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه .

تعالوا بنا مع المؤرخ « ويلز » نتأمل ما قاله في كتابه « معالم تاريخ الإنسانية » عن الثورة الفرنسية وكيف واجهت المشكلات والثورات الداخلية :

« وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . . ولم يكن هناك شيء أحب من هذا إلى أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . وأخذت محكمة الثورة تعمل بجد ، وابتدأت عملية ذبح متواصلة ، ونفذ حكم الإعدام في مدة ثلاثة عشر شهراً قبل تموز ١٧٩٦ في ١٢٢٠ شخصاً - أي بمعدل ٣ أشخاص كل يوم - . ونفذ حكم الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصاً - أي بمعدل ٢٨ شخصاً كل يوم - !؟ وقضت المقصلة على دانتون - وهو أحد زعماء الثورة - لأنه رأى أنه قد بُلغ في استعمال المقصلة . وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحزّ يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع الرؤوس ثم المزيد من الرؤوس . . وكان حكم روبسبير يعيش فيما يبدو على الدم . . وأعجب شيء وأدعاه الى الضحك أن روبسبير كان شريفاً لا يتطرق إليه الشك . . وكان يطيف به إلهام يث فيه رغبة حارة في نظام جديد للحياة الإنسانية . . وكان عدد المحكوم عليهم والمعدومين ٤٠٠٠ إنسان . . » . . وأعدم روبسبير أيضاً بالمقصلة . .

إن ويلز يتحدث في كتابه عن الثورة الفرنسية بمرارة وهو يشعر بفشل الثورات العنيفة : « نحن مضطرون لأن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التي نكافح نحوها كفاحاً مبهماً . . وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغاً من الفجاجة والإمعان في النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محددة في عشرات من النقاط الأساسية الهامة . . » .

« ماركس افترض - بغاية التعجل - أن الدافع الثوروي يُنتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . وأن الثورة قد تقف في منتصف الطريق عند مجرد التدمير . . . » .

وقد بينا أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية أن ليس في استطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أي شيء ثابت لم يُقتل تفكيراً قبل ذلك ولم يفهمه العقل العام . . .

فالجمهورية الفرنسية وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة في الاقتصاديات والعملة والعلاقات الدولية انهارت إلى يد أنانيات رجال الإدارة حديثي الثراء ثم إلى أنانية نابليون - الذي استطاع بعد الثورة أن يحقق ما لم يحدث قبلها من الاستبداد حين أعلن الأمبراطورية !! - . . والمحافظة في ثبات على القانون ، وعلى خطة مرسومة أشد ضرورة في أزمان الثورات منها أيام الهدوء العادية لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بغاية السرعة في أزمنة الثورات إلى مجرد تخاطف تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرّة المحتالين . . فلو قدرنا العلم السياسي والاجتماعي في عصرنا هذا ، قدرنا شيئاً من الواجب التمهيدي الذهني الذي ما يزال على البشرية أن تعمله قبل أن نأمل في أن نشهد أي أعمال عظيمة إنشائية دائمة لا تنتج عن مجرد المغامرة والروح التقليدية . . .»^(١) .

نحن بحاجة ماسّة إلى أسلوب جديد في الإنكار . . يتصف بالعلم والرفق . . ونحتاج إلى إيجاد نماذج جديدة من هذا الأسلوب لنفتح للناس باباً مغلقاً . ولنبدأ حواراً فكرياً هادئاً يعتمد على العلم والفكر

(١) انظر كتاب « معالم تاريخ الإنسانية » ، تأليف « ويلز » .

والأخلاق التي طالب بها الإسلام . . ومنبثقاً عن محبة الآخرين والرغبة في صلاحهم ولو كانوا أعداء . ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ (١) .

إن بناء إنسان جديد لا يؤمن بالإكراه في الفكر . . فهو لا يريد أن يكره أحداً على قبول فكرته ولا يقبل أن يكرهه أحد على قبول فكرة لم يقتنع بها . . وهو مستعد لتحمل نتيجة موقفه هذا بالثبات والصبر الكافي . . إن هذا هو الإنجاز الإنساني الذي تتطلع إليه البشرية لاستعادة كرامتها الإنسانية . . ولقد كانت هذه خطة الأنبياء في صناعة الإنسان : ﴿ كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ (٢) .

ولقد وعى بعض العلماء المجددين في عصرنا أهمية هذه الخطة ، فنادوا بها وتبنوها في عملهم الإصلاحى . . منهم « أبو الأعلى المودودي » - رحمه الله - في باكستان الذي طرح هذا الموضوع في كتبه وعلى الأخص « نحو ثورة سلمية » و « نظرية الإسلام وهدية » . ومنهم « وحيد الدين خان » في الهند ، ومالك بن نبي - رحمه الله - في الجزائر في سلسلة كتبه « مشكلات الحضارة » ولا سيما كتابه « في مهب المعركة » حيث شرح أسلوب اللاعنف في التغيير ، وقدم أمثلة واقعية تدعم بيانه .

كما أن تجربة الهند الأخيرة في حصولها على الاستقلال جديدة بالتأمل ، فلقد كشف « غاندي » فعالية هذه الخطة وطبقها في تحرير الهند من بريطانيا . .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة العلق ، الآية ١٩ .

« أنا أعتقد أنني أسديت خدمة إلى الهند وبريطانيا بإظهاري من طريق اللاتعاون الطريقة المفضية بنا إلى الخروج من الوضع اللاطبعي الذي يعيش فيه هذان البلدان وفي رأي المتواضع أن اللاتعاون مع الشر واجب بقدر ما هو واجب التعاون مع الخير . ولكن فيما مضى كان اللاتعاون يتخذ عن عمد صورة العنف لإرهاق المسيء الشرير . في حين أنني أنفق غاية الجهد لأظهر لأبناء وطني أن اللاتعاون العنيف لا يؤدي إلا إلى مضاعفة الشر ، وأنه لما كان العنف هو السبيل الوحيد إلى تدعيم الشر، فإن الوسيلة إلى حرمان الشر دعامته هي الاستنكاف عن اصطناع العنف . إن اللاعنف ينطوي على قبول طوعي لعقوبة اللاتعاون مع الشر . . . »^(١) .

« وكان أحد الأجانب قد قال : إن غانديجي بتجريده شعبه من السلاح قد جرد البريطانيين من سلاحهم . يعني أنه بتعليمه الهنود أن يكونوا لا عنفيين قد جعل أسلحة الحكومة غير فعالة ، ولقد كان ذلك صحيحاً مئة بالمئة . فلو أننا أدركنا أكمل الإدراك معنى اللاعنف إذن لما استطعنا أن نحقق الاستقلال بأسرع مما حققناه فحسب ، بل لكان في ميسورنا أيضاً أن نكتسب القوة لمواجهة العالم في مختلف الأحوال والمناسبات . ولكن هذا الأمل لما يتحقق حتى الآن . لقد كسبنا حريتنا . . هذا حق لا ريب فيه . ومع ذلك فإن علينا اليوم أن نعتمد في حماية هذا الاستقلال على قواتنا المسلحة . . !! »^(٢) .

« كثيراً ما حذرنا المهاتماجي قائلاً : إن الشخص القادر على

(١) كتاب « عند قدمي غاندي » ، تأليف « راجاندرابرازاد » ، ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ . ملاحظة : غانديجي والمهاتماجي هي القاب لغاندي .

احترام القانون هو وحده المؤهل لأن يتحداه . يعني أن الشخص الذي تعود أن يتحدى القانون ليس أهلاً لكسره بوصفه لا عنيفاً ، ذلك بأنه لا يستطيع أن يقدم على ذلك بالروح الصحيحة وبأن عصيانه المدني لن يحدث في نفس الخصم أيما أثر . . من أجل ذلك كان قد علمنا أن نحترم جميع القواعد والأنظمة النافذة في السجون . . « (١) .

« إن الهدف الذي ترمي إليه الساتياجراها - اللاعنف - هو إحداث انقلاب خيّر في ذات نفس الخصم من طريق الآلام التي يتحملها المرء والمشاق التي يعانيتها ، وإن على اللاعنفي أن يحاول إقناع الخصم بصوابية موقفه لا بالقوة والعنف ولكن بالثبات على الحق . . « (٢) .

« هل يستطيع الإنسان أن يكون حراً إذا ما حرم الآخرين حريتهم ؟ هل يستطيع أن يكون فاضلاً حقاً إذا ما فرض على الآخرين ما يعتبره فضيلة ؟ هل يستطيع أن يجعل الحقيقة ممكنة في حياة الآخرين ، وحياته هو حافلة بالكذب ؟ وهل يستطيع أن يحيا حياة قوامها الحقيقة إذا كان الخوف يخلع فؤاده ؟ هذه هي الأشياء التي حققها غانديجي في حياته الخاصة ، وهذه هي الحقائق التي تنادي بها الأديان (بمعناها السماوي) جميعاً « (٣) .

هذا عدا عن ما جاءت به الأديان من عقائد سليمة عن الله وصفاته والرسول . . وما أمرت به من عبادات . .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٦ . ويذكرنا هذا بصحيفة المقاطعة وحصار قریش للمؤمنين

في الشعب ، وكيف كان المشركون هم الذين نقضوا الصحيفة بأيديهم .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

إن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى متخصصين في علم النفس والاجتماع ، كي يحققوا تغييراً فعلياً عميقاً في الثقافة السلبية للأمة . فقد بات واضحاً أن التغيير السريع المعتمد على القوة سطحي لا جذور له ، ويخلق أكثرية خاضعة مُلزمة تتربص الفرصة للانفلات كما حدث حين انفلتت المرأة من الحجاب الذي فرض عليها في الماضي القريب بالقوة . وينبغي أن يبذل جهد مستمر من قبل الطبقة الواعية الملتزمة لتحويل الآخرين إلى مستوى الالتزام الصادر عن قناعة ذاتية . إذ لا يمكن الاعتماد على الإلزام الذي يفرض على الإنسان من الخارج وحده . . ولا شك بأن المجتمع ينبغي له أن يأخذ على يد الظالم ، وأن يمنع المجرم من ممارسة الجريمة . . - أي يُلزمه بطاعة القانون - لكن هذا إذا لم يُدعم بالسعي الدائم لإقناعه بمساوىء الجريمة وضرورة القانون لحياته وحياة الأمة . . فإن الأمور لن تستقيم ولا بد للمجتمع أن يتدهور . . ولهذا فإن عملية التعليم والدعوة إلى الخير ضرورية قبل الأمر بالمعروف وبعده ولا يمكن الاستغناء عنها في كل المراحل ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف . . ﴾ (١) .

٧ - وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ

نلاحظ أن ما بقي من الوصايا تتعلق بالجانب الأخلاقي عند المسلم عامة والداعي إلى الله خاصة . إنها أخلاق وآداب وعلى رأسها الصبر . . وكما قال ابن تيمية : الصبر بعد الأمر والنهي . . لأنك لا بد أن تتعرض للأذى من الناس : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٢) .

(٢) سورة الزمر ، الآية ١٠ .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

الصبر : هو الثبات وتحمل الأذى والمصائب واللجوء إلى الله وحده والثقة به والرضا بقضائه . لكن كيف نحصل الصبر ونتصرف به ؟ .

الصبر : نتيجة للفهم الصحيح . فالذي كشف الطريق الصحيح وعرف العقبات الموجودة فيه يستطيع أن يسير في الطريق ويصبر عليه . . . والذي عرف قانون تركيب المادة التي يريدتها يستطيع أن يصبر على تهيئة المواد وانتظار المدة اللازمة للحصول عليها . . . والصبر سيكون سبباً لزيادة في الفهم والعلم وسبباً للنجاح والوصول إلى الهدف . . . فالصبر نتيجة لما قبله وسبب لما بعده . . . والعلم ينتج الصبر والصبر ينتج مزيداً من العلم والوعي . وحياتنا كلها تحمل هذا الترابط . وينبغي أن نفهم أن كل حادث وكل عمل نقوم به هو نتيجة لما قبله وسبب لما بعده . . . فالذي يشعر أن تعلم القرآن والتمسك به ضروري لتغيير الأوضاع السيئة ، يستطيع أن يصبر على الدراسة المستمرة فيه . . . وإن هذه الدراسة تعطيه فهماً ووعياً أفضل . . . وهكذا كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن الصبر والاستمرار في أداء الواجب هو الذي يثمر النتيجة المرجوة . . .

يقول خباب بن الأرت : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل انكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه . والله لِيُتَمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » (١) . . .

(١) رواه البخاري .

نحن تستهويننا السهولة ونستعجلُ ، فنريد من البذرة أن تصبح شجرة في يومين . . وهذا نابع من جهلنا بقانون النبات . . الاستعجال والجهل توأمان . . الاستعجال هو محاولة للقفز فوق القانون . . أما الفعالية فهي كشف القانون - أو السنة - لكي نحصل على ما نريد بأقل وقت وجهد ممكن . .

الاستعجال : هو محاولة الدخول إلى البيت من سطحه أو ظهره . . والفعالية هي الحصول على المفتاح والدخول من الباب . . و ﴿ ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . ولكن البر من اتقى . وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ (١) .

الصبر أن تضع البذرة في التراب وتتعهدها بالعناية المستمرة . . ثم تنتظر حتى تنمو وتصبح شجرة ، وتجني ثمارها . الصبر الذي أتحدث عنه هو الصبر الإيجابي . . وليس هو الصبر الشائع عند الناس بمعنى الذل والاستكانة والاستسلام للأوضاع السيئة دون محاولة التغيير . . الصبر صبر على البناء والعمل وأداء الواجب . . صبر على صعود الجبال . . لا على العيش بين الحفر . .

ومن يتهيب صعود الجبال يعشُ أبد الدهر بين الحفر

سأل أحدهم فيلسوفاً : كيف أصنع وأنا لا أستطيع الصبر على
تحصيل العلم ؟ فأجابه الفيلسوف : إذن فاصبر على شقاوة الجهل . .

إن هذا الكلام فيه تجاوز . . لأن الصبر لا يكون فضيلة إلا إذا كان صبراً على العلم والتعليم أما الركون إلى الجهل والجمود فهو ذلٌ وسقوط

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

همة . وكم من فضيلة حرّفناها حتى صارت داءً ورذيلة . . ألم نفهم الإيمان بالقدر على أنه ترك للبحث عن الأسباب والسعي لاستكمالها . . ؟ ! والأمة في عصر انحطاطها تقع في التحريف والفهم الخاطيء حتى تصبح الأفكار الإيجابية التي كانت سبباً في النهضة سلبيات معوقة . .

هذا الصبر الإيجابي هو الذي يكفر الله به الخطايا ويجزي عليه بغير حساب : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١) . وجاء في الحديث : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » (٢) .

والصبر المنبثق من العلم لا يدع مجالاً لحدوث ضغط في النفس يؤدي إلى الثورة والانفجار . . وكم من صبر تجملنا به مع أولادنا أفسدته ساعة ثورة وغضب أطلقت اللسان بما أحبط العمل وأفسد ساعات من البناء والتعب في توجيههم وضيع علينا الأجر . . .

لحظة يا صاحبي إن تغفل ألف ميل زاد بعد المنزل

ومنا من يخرج عن طوره فيدعو على نفسه أو على أولاده . . « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » (٣) .

وإن الذي يعرف أنه على الطريق يستطيع أن يكظم غيظه ، ويتجلد

(١) سورة الزمر ، الآية ١٠ .

(٢) متفق عليه . الوصب : المرض .

(٣) متفق عليه .

أكثر من الذي يحس أنه في متاهة يعرف أين يتجه . . ومع ذلك فإن الصبر
وتوطين النفس عليه ليس سهلاً . .

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾

وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بالعزم والإرادة . . إن
الأمر يحتاج إلى إرادة وعزم وهذا يدل على وعي وقوة نفس . « ليس
الشديد بالصرعة . إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) . .
فمتى تحدث مباريات لبطولة العالم في هذا المجال . . ؟ !

٨ - وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ

الصعر : داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها . يختار القرآن هذا التعبير
لينفر من الكبر الذي يجعل المتكبر يعرض بوجهه في تعالٍ عن الناس إذا
كلمهم أو كلموه . . والمشي في الأرض مرحاً : هو المشي في تخايل
وقلة مبالاة بالناس .

ذكر ابن كثير هذه القصة : نظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو
يختال في مشيته - وذلك قبل أن يستخلف - فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه
وقال له : ليس هذا شأن من في بطنه قدر . . فقال له كالمعتذر إليه : يا
عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها . . قال أبو
بكر بن أبي الدنيا : كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه
المشية . . ؟ !

أتعجب من حرصهم على تعليم أودهم المشية السيئة . . ! بينما لا
نحرص نحن ولا بنصف هذا الحرص على تعليم أولادنا المشية

(١) متفق عليه . والصرعة : الذي يصرع الناس ويغلبهم .

ويهددهم : **اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴿١٨﴾

فمن للبعد إن أبغضه الله . . ؟ !

والمختال : هو الذي تدل حركاته على التكبر . أما الفخور فهو الذي يتعالى على الناس بكلامه . « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري . فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي » (١) .

التقى عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب على الصفا فتواقفا . فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي . فقالوا : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هذا زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، أكبه الله في النار على وجهه » (٢) .

والشيطان يُسول للنفس فيجعلها تعتبر العفو ذلاً . . كما يوسوس بأن الصدقة تؤدي إلى الفقر . والنبي ﷺ يقول : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد إلا رفعه الله » (٣) .

ومن التكبر أن يحب قيام الناس له (٤) . . قال أنس : « لم يكن

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه مسلم من حديث ابي هريرة .

(٤) جاء في الحديث الصحيح : « من أحب أن يتمثل الناس له قياماً ، فليتبوأ مقعده من

النار » .

شخص أحب إليهم - يقصد الصحابة - من رسول الله ﷺ . وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك» (١) .

فهل يدخل في الكبر الأناقة في الملبس والمظهر . . ؟ !

عن ثابت بن قيس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ويعجبني شرك نعلي وعلاقة سوطي . فقال ﷺ : « ليس ذلك الكبر . إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس» (٢) . فهو استعلاء على الحق وظلم للناس وإنقاص لحقوقهم . . لكن المسلمين يسيؤون الفهم وتتحكم بهم مفاهيم التخلف - كما سبق أن أشرت - وكثيراً ما نسمعهم يستشهدون بحديث شائع رواه الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا عن أنس بن مالك عنه ﷺ : « رب أشعث ذي طمرين . . إذا أقسم على الله لأبره . . » ومثل هذه الأحاديث ما كان لها أن تسبب بلبلة في الفهم لو وجدت الشخصيات المسلمة المتفاعلة مع القرآن المتخلقة بأخلاقه . . وحين يتعذر عليك أن تأتي بأنموذج وتقول : مثل هذا . . يصبح لزاماً عليك أن تصف وتفصل وتأتي بالتعريفات لإعطاء المعنى المحدد . . وقد عقد الحافظ ابن كثير فصلاً في هذا الموضوع ، وعرض بعض أقوال العلماء فيه - حبذا لو اطلع عليه القارئ - ألتقط منه بعض النقاط :

- قال إبراهيم النخعي : « لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك به السفهاء» . .

(١) رواه الترمذي .

(٢) رواه الطبراني .

- وقال سفيان الثوري : « كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه » . . .

- وقال عبد الرزاق بن معمر : « كان أيوب يطيل قيمصه » . فقيل له في ذلك ؟ فقال : « إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص واليوم في تشميره » . . لأن الرسول ﷺ لما نهى عن إسبال إزار صاروا يتنافسون في تقصيره بعد ذلك لإظهار الورع .

- وفي بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبني إسرائيل : « مالكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ؟ البسوا ثياب الملوك وألینوا قلوبكم بالخشية » .

فالتواضع صفة نابعة من القلب تطبع السلوك بحيث تصبح العلاقات مع الناس بالعدل والإحسان دون استكبار أو استضعاف . . يقول الفضيل بن عياض عن التواضع : « أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته » .

- ويقول ابن المبارك : « رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تُعلِّمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا حتى تُعلِّمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل » .

فابن المبارك يحدد التواضع بأن لا تكون مستكبراً ولا مستضعفاً . أن تعرف متى تتواضع ومتى تعتز . ﴿ أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾^(١) . . قام أبو دجانة يوم أحد يتبختر بين الصفوف وقد عصب

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

رأسه بعصاة حمراء - يعلم بها عند الحرب - فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « إنها لمشيئة يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » (١) .

فإذا كان الكبر قبيحاً مستهجنأ فإن الذل لا يقل عنه قبحاً . .
﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، مالنا من محيض ﴾ (٢) .

والمسلمون يخلطون في هذا المجال ويتصرفون كمن يمشي على قمة رأسه . . يتواضعون في ظرف يحتاج الى العزة ويتعالون في موضع خفض الجناح ﴿ بأسهم بينهم شديد . . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . . ﴾ (٣) . ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ (٤) . . والمشكلة دائماً هي فقدان الحالة الوسط . . والعجز عن رؤية الجانبين . . فنحن نرى من الناس جانباً واحداً إما الحسنات وإما السيئات . . والتوسط والاعتدال أن ننظر إليهم على أنهم بشر يخطئون ويصيبون ، ونقبلهم على هذا الأساس ، وإلا وقعنا في ظلم الناس وغمطهم . . وكما أن رؤية السيئات وتضخيمها فيهم غمط ، فكذلك تصوّر الكمال فيهم . . ظلم لهم أيضاً .
وحين يعرف الإنسان أن ما أصابه من نعمة الله وليس فقط لذكائه الخارق . . بل إن جهود الناس الذين سبقوه قد أسهمت أيضاً في حدوث النعمة له . . إن الذي يدرك كيف تنمو الحياة الإنسانية ببطء وكيف يجني كل جيل ثمرة أتعاب الذين سبقوه . . لا يفخر ولا يتكبر ، ويزول احتقاره

(١) أورده ابن كثير في تاريخه عن ابن اسحاق .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٢١ .

(٣) سورة الحشر ، الآية ١٤ .

(٤) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

للآخرين ويحمد الله على ما وصل إليه . .

إن الحالة الوسط في هذا الموضوع هي الوصول إلى النضج الكافي الذي يجعلك تعرف كيف تطبق أمرَي الله معاً : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ (١) . . ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ (٢) . . وإدراك هذا ليس سهلاً ولا مستحيلاً . . ولكن بالجهد والمعاناة نصل .

٩ - وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

حين بدأ الوصايا ﴿ لا تشرك بالله ﴾ أي صحح أفكارك ، وبعد ذلك يتغير سلوكك ، وحركات عضلاتك تتغير أيضاً . . حتى نظرك ومشيك يحدث فيه التصحيح والتعديل . . امشِ مقتصداً معتدلاً لا بطيء الخطو ولا سريعاً المفرطاً في السرعة . . مشية لا فيها ذل ولا كبر . . متواضعاً . . وليكن لك قصد وهدف تمشي إليه ، وليظهر ذلك في سيرك بحيث تمشي مشية الهادف لا مشية الضائع التائه المتسكع . .

ولما نهى الله - المسلم - عن مشية المرح أمره بالمشية التي تليق بصاحب دعوة عالمية . . لقد كانت مشية رسول الله ﷺ قوية هادفة كأنه ينحط من علٍ . . يتقلع في مشيته (٣) . . وكان عمر أزهده الناس . . وكان إذا مشى أسرع ، وإذا تكلم أسمع . . وقد ضرب رجلاً بالدرّة على مشيته الضعيفة ، وقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا (٤) . .

إن الحركات البسيطة ترسم معالم الشخصية . . ولا غرابة فعباد

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

(٣) كما جاء وصفه في السيرة .

(٤) أخبار عمر للأستاذ علي الطنطاوي .

الرحمن يُعرفون في مشيتهم وأسلوبهم في الكلام : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (١) . . ألا نستدل على ملامح شخصية الإنسان من بعض حركاته ومن طريقته في المصافحة أحياناً . . ؟ !

١٠ - وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ

وخفض الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث . . وكلما شعر الإنسان بضعف حجته رفع صوته ليعوض النقص في الحجة والبرهان . وإن الذي فهم قانون الحياة لا يفعل ولا يصيح . إنه هادىء يعرف كيف يصل إلى أهدافه . . أما الصياح فهو دليل فقدان العلم . . والقرآن هنا يرسم صورة ساخرة منفرة تجعل الإنسان يخجل من رفع صوته !!

إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ورد في الخبر : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله . وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً » (٢) .

تلك هي وصايا لقمان الحكيم لابنه . . فهل من مدّكر ؟ .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .

(٢) رواه النسائي .

الفصل الثالث

أيها الإنسان ماذا أنت فاعِملْ !

الْمُتَرَوِّا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسَلِّمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَافِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ
مِنَ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ
مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ
وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

بعد هذه التأمّلات والتوجيهات في جانب العلاقة مع الله والعلاقة مع الناس . يتناول العلاقة الثالثة للإنسان ، وهي علاقة التسخير مع الكون ، ويتأمل موقف المجادل المقلد الذي غفل عن هذه العلاقات السليمة . . ويتحدث عن جزاء المدركين المحسنين وعن المعرضين عن ربهم على الرغم من أن أعماقهم تعترف بالله . . ألا يرون علم الله وقدرته . . ؟ ! فكيف يُكابرون . ؟ !

الكون مسخر للإنسان المنعم عليه

الْمَتَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

﴿ ألم تروا ﴾ ! تعبير فيه تعجب استنكاري من غفلة البشر . . فيه استشارة لرؤية البصر التي تؤدي إلى رؤية البصيرة . . الرؤية مع الفهم . . وإلا فما الفائدة من رؤية المبصرين الذين لا يدركون . . ؟ ! ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (١) . . إن البصر هو أحد وسائل المعرفة الثلاثة التي أعطيت للإنسان : ﴿ إن السمع

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٥ .

والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴿١﴾ . وهذه الأجهزة الدقيقة هي التي حوّلت الإنسان أن يكون خليفة الله في الأرض . . فعملها وتخلي عن مركز الصدارة : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾ ﴿٢﴾ . .

إن الله كرّم الإنسان فخلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له السموات والأرض تخدمه بدون مقابل أو أجر ﴿٣﴾ . . فهي مسخرات بأمره ويستطيع أن يتحكم بها لمصلحته إن كشف قوانينها . . فكيف تتخلي أيها الإنسان عن هذه الكرامة . . ؟ !

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ !

سؤال للتعجب من موقف الإنسان الغافل عن دوره . . وللتذكير بنعمة الله عليه . . ولكن السؤال يبدو عجيباً بالنسبة للمسلمين الآن . . لأنهم لا يشعرون أن الكون مسخر لهم . . إنه مسخر لأعدائهم . . ! بل إن المسلمين أنفسهم مسخرون لرغبات الدول الكبرى في العالم . . ! وإن عالم الكبار هم الذين غزوا الفضاء فأذعن لهم بعد أن أذعنت لهم الأرض . . إن المسلم المعاصر كثيراً ما يبتسئ ويشعر بالحيرة ويتساءل : هل الكون مسخر لهؤلاء الذين تنكروا لطريق الله . . ؟ ! أم أنه ينبغي أن يتسخر للمؤمنين فقط لمجرد انتسابهم إلى دين الله . . ؟ !

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣٤ :

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٣) يقال : أعمال سُخِّرَ إذا كانت بدون أجر .

وينبغي أن ندرك أن الكون مسخر للجميع . . للمؤمن والكافر ،
ولكن بشرط أن يعرف سننه . وإن الذي يكشف سنن الكون وقوانينه ملك
مفاتيحه وعرف كلمة السر التي تفتح أمامها الأبواب وتحل الطلاسم . .
ولا علاقة للإيمان والكفر بهذا الموضوع . . غير أن المؤمن ينبغي أن
يكون الأسبق إلى الكشف والتسخير ، لأن قرآنه يدفعه إلى ذلك ، وهو
موعود بتأييد الله إن أدى واجبه .

وحتى نصل إلى التسخير ، لا بد لنا من تعليم خاص ومختزل
يتناول خبرات التاريخ وكيف بدأ الخلق . . حتى نتدارك الهوة السحيقة
التي تفصل بيننا وبينهم . . إنهم وصلوا في التسخير إلى استغلال طاقة
الشمس في الصناعة والتدفئة ، ولاسيما بعد أن عرفوا ميزتها على البترول
والطاقة النووية بأنها أنظف فهي لا تخلف فضلات من دخان أو ما يتلف
الحياة . وتعطي مردوداً أكبر ، وهي مجانية في المناطق الحارة خاصة . .
وهذا من شأنه أن يملأ الصحاري بالعمران . . ويحل أزمة الطاقة . .

إن عالم الكبار اليوم يجني ثمرات تسخير الكون الذي انطلق وراءه
منذ عصر النهضة . . لقد كشف العلاقة السليمة مع الكون فهو يحرز
النصر تلو النصر في الجانب المادي - التكنولوجي - . لكنه أهمل العلاقة
الأولى مع الله . . وعمم علاقة التسخير - التي لا ينبغي أن تكون إلا مع
الكون - على الناس . بل إن العلاقة كثيراً ما كانت تتجاوز حد التسخير
لتصل إلى الاستعباد والإبادة . . فالحضارة الغربية « ملحمة تمت على
ثلاث مراحل . وكل مرحلة منها كانت كارثة إنسانية . جاءت أولاً مرحلة
الإبادة الجماعية والرقيق الأسود والتوسع الأخطبوطي ، ثم كانت مرحلة
النهب العالمي ، وأخيراً جاءت المرحلة الأخيرة التي نعيشها : مرحلة

« وفي سبيلها دمرت ثلاث قارات . . أربعة قرون ظل الغرب يدمرها ثم يدمر . . فأما الأولى - أمريكا - فمسح عن وجهها كل من عليها من البشر المسلح بالقوس والنشاب ، كان يجريه التقى الدموي عُريهم الأحمر لذوي العيون الزرق والبشرة البيضاء حملة البنادق بيدٍ والكتاب المقدس في الأخرى . . وأما القارة الثانية - أفريقيا - فاستعبد كل من عليها من البشر . . إنهم مجرد زنوج . . ! هل لهم من روح ؟ ذلك موضع شك . إذن فهم لا يستحقون أكثر من أن يكونوا قوافل من العبيد !! وأما القارة الثالثة - آسيا - فبشر بكثرة الدود وتكالب الدود . . لا يصلحون لغير الاستغلال والموت . . فليكونوا للاستغلال والموت . . وهكذا ذبح الغرب أربعين مليون إنسان في الأولى ، واسترق مئة مليون عبد من الثانية ، وامتص دماء خمسمئة مليون في الثالثة «(٢) .

« الذهب الأمريكي - الأفريقي . . والدم الهندي - الزنجي ، كانا نهري الطاقة المجانية والخرافية للغرب الأوروبي . ولم يسمحا فقط ببناء قوته البحرية والاقتصادية الضخمة ، ولكنهما سمحا له أيضاً بأن يمد علاقات الأخطبوط إلى شواطئ آسيا كلها ، وأن يقيم عليها بالقوة نقاط الدخول ومراكز الاتصال والامتصاص . وحين انتهت هذه المرحلة بعد حوالي القرنين ، كانت أوروبا سيدة البحار والنظام التجاري في العالم كله . . وجاءت بعد ذلك مرحلة النهب العالمي . إنهم يسمونها مرحلة

(١) من مقال ثمن الحضارة الغربية ، للدكتور شاكراً مصطفى ، منشور في مجلة العربي ، عدد صفر ١٤٠٢ هـ .

(٢) المصدر نفسه .

الاستعمار من قبيل تسمية الأضداد . . « (١) .

« وأخيراً جاءت المرحلة الثالثة : مرحلة تنمية التخلف ؛ هذه المرحلة هي الواقع الذي نعيشه اليوم . . الحلقة الشيطانية التي حسب الكثيرون أنها كفت عن الدوران في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ومع بزوغ الاستقلالات تدور اليوم بأقصى عنفها تطحن العلاقات الإنسانية بقيادة التنين الأمريكي . . القوى التكنولوجية والنووية التي تفجرت بين أيدي الغرب تستخدم اليوم بكامل طاقاتها لا لتطويق العالم الثالث ونهبه فقط ، ولكن لتنمية التخلف فيه . . النهب المزمّن القديم لا يستمر فقط ولكنه يزداد وتضاف إليه الآن عمليات أخرى من التدمير لهذا العالم المنكوب :

- امتصاص خيراته البشرية الناشئة لثلاث تكون منها قاعدة تنمية قوية .

- الربط بعجلة الاستهلاك ليكون أكثر تأثراً بتهديد الجوع .

- إثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعي والديني واللغوي والسياسي والاقتصادي في المجتمعات النامية لتكون أضعف من أن تستغل خيراتها أو ترفض الخنوع . . إنها التنمية للبلاد النامية ، ولكن على الطريقة الغربية . . تنمية التخلف « (٢) .

إن علاقة التسخير وحدها لا تغني عن تصحيح العلاقاتين الأوليين - مع الله ومع الناس - بل إنها جعلت مصير العالم في كف عفريت . . ومع ذلك فإن التسخير نتاج للعلم . . والعلم لا يأتي إلا بالخير . . ولهذا وقف العلم - التكنولوجي - في وجه عالم الكبار الآن يهددهم : إما أن

(١) - (٢) المصدر السابق . ولإتمام الفائدة أمل من القارئ مراجعة المقال كله .

ترجعوا إلى القيم والأخلاق أو أدمركم . . !! وذلك عندما عرف الكبار أن الأسلحة النووية ستقضي عليهم جميعاً إن لم يرجعوا إلى الحوار الفكري ومحاولة التعايش وتحكيم الأخلاق والقيم . - وهذا ما يعبرون عنه : بأن القوة أبطلت نفسها - فالمستقبل يبشر بخير وإن لم نرَ حتى الآن خطوات جديّة وسريعة في هذا المجال . .

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ

التسخير . . تلك النعمة الكبرى التي منحت للبشر . . ويضاف إليها نعم أخرى ظاهرة وباطنة مستترة . . لا تعد ولا تحصى . . ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾^(١) . . إن نعمة التسخير بالذات يمكن أن يلمس فيها ظاهر وباطن . . فكم من الطاقات كشفت وصارت نعماً ظاهرة . . وهناك طاقات ومنح كامنة ومبثوثة في الكون ستكشف في المستقبل . .

ولهذا قال : (أسبغ) أي أفاض . واللباس السابغ هو الذي يستوعب الجسم كله ويفيض عنه . . ونحن ننسى هذا الفيض من النعمة ، ولا نكاد نؤدي واجب الشكر . . فإذا كان الرسول ﷺ ينبهنا إلى النعم التي لا يكاد يخلو منها إنسان حين يقول : « من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها »^(٢) . . فكيف ونحن نملك من الأقوات ما ندخر لسنوات . . ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾^(٣) . ومع ذلك فإنك ترى كثيراً من

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه . سربه : أي نفسه وقيل قومه .

(٣) سورة الروم ، الآية ١٨ .

هؤلاء الذين يتقبلون في نعم الله يتصرفون بوقاحة مع المنعم جل وعلا . . ! ها هم أولاء ويا للعجب . . يجادلون في الله الذي غمرهم بفضله وكرمه . . بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . !؟ وهذا ما يزيد الموقف وقاحة . . !! والمجادلة في أي موضوع بغير علم هي مجادلة في الله وقوانينه وسننه .

والعلم يختلف قليلاً عن الهدى . . الهدى : ما ينزل من السماء من قيم وتوجيهات للإنسان . . فهو أعم من العلم وأكبر لأنه صادر عن العليم الحكيم : ﴿ الذي أعطى كل شي خلقه ثم هدى ﴾^(١) . فالهدى صادر عن العلم المطلق بقوانين الكون والحياة ، ويعطي المبادئ والنظم التي تتفق مع هذه القوانين . . بينما العلم الإنساني جزء يسير . . وهو ما استطاع الإنسان أن يكشفه حتى الآن من القوانين والأدلة . . في مجالي الآفاق - التكنولوجيا - والأنفس - العلوم الإنسانية : علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ - . والعلم هو الذي يشهد بصدق الكتاب : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٢) . . فالقرآن يثق بالعلم . . ويقول عن الذين يتنكرون للهدى : ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ﴾^(٣) ويقول : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾^(٤) . . ويقول عنهم في مواضع أخرى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾^(٥) . فإنهم وإن حققوا كشوفاً وانتصارات في - التكنولوجيا - لكنهم في العلوم الإنسانية لم يصلوا

(١) سورة طه ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

(٣) (٤ ، ٤) سورة النجم ، الآيتان ٢٨ - ٢٣ .

(٥) سورة الروم ، الآية ٧ .

إلى مرتبة العلم . . ولو وصلوا لأعادهم هذا العلم إلى الهدى . . ثم إن من سمات العلم أنه يعطي صاحبه موقفاً علمياً مما يجهل . . فهو لا يسارع في إنكار ما لم يظهر دليله بعد . . لأنه يؤمن بأن العلم في نمو مستمر . . وأن ما لديه منه قليل . . ومما لا شك فيه أن العلم يؤدي إلى نوع - أو نصيب - من الهدى . . لأن الذي يمارس العلم ويتمرس فيه يصبح لديه حدس أقرب إلى الصواب . . وهذا ما نعبر عنه : بأن من مارس التسخير أُعطي القدرة على التنبؤ . . وأوضح مثال على ذلك أن عالم التاريخ الذي درس أحداث التاريخ لكشف سنن نهضة الأمم وأسباب انهيارها . . يستطيع أن يخطط لأمته - وهذا هو التسخير - بل ويستطيع أن يتنبأ بمستقبل الأمم من حوله . . أما بالنسبة للمسلم المعاصر فهل استفاد من الإشارات القرآنية إلى العلم . . ؟ إن هداية الله - أو الهدى - كانت تخاطب كل عصر بأدلة تناسب مستواه العلمي والنفسي ، حتى أن البراهين التي تقدم على موضوع واحد كانت تتباين وتختلف لاختلاف العصور ومستويات الإدراك . فإبراهيم عليه السلام عندما تساءل عن بعث الموتى أراه الله سبحانه بأمر عينيه كيف يتم إحياء الموتى ، وكذلك العزير . لكن أبي بن خلف عندما سأل رسول الله ﷺ عن هذه القضية وبيده عظم رميم ففتته ثم نفخ عليه فطارت ذراته . . وقال : يا محمد . أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ - جاءه الجواب بالدليل العلمي : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ ! قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (١) . . ومعنى ذلك أن البشرية صارت قادرة على الاستدلال العلمي . . فبدلاً من أن يقدم لكل

(١) راجع تفسير ابن كثير للآية ٧٧ من سورة يس .

فرد برهان الرؤية الحقيقية لـ : ﴿ كيف يحيي الله الموتى ﴾ ، يقدم
البرهان العلمي الاستدلالي الذي يؤمن الناس على أساسه ، أي أن
الهدى كان يخاطب الناس على قدر عقولهم وعلمهم . .

واليوم وقد تقدمت البشرية أكثر وارتقت ، صار لزاماً أن نتخاطب
بلغة العلم الذي تثق به وأن نُطوِّر أدلة الهدى الذي يدعو إليه الدعاة ، أي
أن المسلم الآن عليه أن يأتي بشهادة الآفاق والأنفس لتشهد للهدى بأنه
الحق . ففي قضية أدلة الآخرة أشار القرآن أن : ﴿ الذين لا يؤمنون
بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾^(١) . فعلينا أن نقدم للعالم الآن
الدراسة الاجتماعية بالإحصاء والأرقام للأنموذجية - الذي يؤمن بالآخرة
والذي لا يؤمن - على مستوى فردي واجتماعي حتى يتبين بالمقارنة من هو
في العذاب والضلال البعيد . وهذا مثل على العلاقة بين العلم والهدى
عبر العصور . . وإن العلم لا يمكن أن يوصف بالحياد بين الهدى
والضلال . . ولقد شاء الله أن يكون العلم خادماً منحازاً للهدى . .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾

ليس لهم أي رصيد في المستقبل . . لأنهم لا يعرفون لغة
عصرهم . . لقد عجزوا عن مواكبة التقدم العلمي واللحاق به . . إنهم
تتحكم فيهم مفاهيم الآباء والأجداد وتكبلهم أغلال الأساليب القديمة
والتقاليد ، عن التفاعل مع أساليب التفكير العلمي الذي يهتم بإحصاء
النتائج ويختزل خبرات التاريخ لتحقيق تصاعداً إنسانياً . .

(١) سورة سبأ ، الآية ٨ .

موقف المجادل المقلد

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

وقد تكون دوافعهم هي تقديس آراء الآباء وتنزيههم عن الخطأ . . . وهو أحد الانحرافين في العلاقة مع التراث^(١) . . . ويقابله تحقير التراث وبتر العلاقة الثقافية معه . والموقف السوي هو القدرة على اختيار الإيجابيات وتنحية السلبيات من التراث . - وهي عملية اختزال المعرفة عبر التاريخ - . وقد يكون الدافع هو الخوف من مخالفة الناس ، فهو يعلم تفاهة هذه التقاليد وعدم صلاحيتها للحياة لكنه يخشى الناس ويستسلم لمفاهيمهم . على كل حال فالنتائج واحدة لكل من يتخذ هذا الموقف وهي :

١ - الوقوع في الشرك - الذي هو في جوهره الفهم الخاطيء - فالذي يجعل رأي الآباء فوق كلام الله فقد أشرك ، والذي يخاف من الناس أكثر من خوفه من الله فقد أشرك ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾^(٢) .

٢ - تعطيل العقل وإلغاؤه . . . بينما يمثل القرآن دعوة تحريرية للعقل تحرم الاتباع إلا بعد التأمل والفهم .

(١) يراجع في هذا كتاب «العقاد» التفكير فريضة إسلامية حيث يبين أن تقديس الآباء للباطل لا يجعل الباطل حقاً .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٨١ .

جزاء الفريقين

أيصرون على اتباع الآباء مهما كانت النتائج؟!؟

أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

ألم يكن أجدر بهم أن يقفوا موقفاً آخر . . ؟!

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان ، فما ينبغي أن يسلم لأحد إلا لله . . وإسلام الوجه لله هو الاستسلام المطلق لله بثقة وطمأنينة . . (وهو محسن) والإحسان كما عرفناه : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) . . والآية مثل قوله : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا . . ﴾ (٢) .

والآية تنص على شرطين لنجاح الأعمال في الدنيا وقبولها في الآخرة وهما : الإخلاص والصواب . (يسلم وجهه لله وهو محسن) ولا ينفع أحدهما بدون الآخر . ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (٣) . . لكن أيهما يأتي أولاً . . ؟ ومن أين نبدأ . . ؟ هل يمكن أن نخلص لشيء قبل أن نعرفه (٤) ؟ لا بد من إيجاد قسط من الصواب في البداية . . وعندما نكشف شيئاً من الحقيقة نخلص لها . . والإخلاص يدفعنا إلى مزيد من المحاولة لكشف الصواب . . لأن الصواب لا يوجد دفعة واحدة وإنما يزداد باستمرار .

(١) متفق عليه . (٢) سورة فصلت ، الآية ٣٠ . (٣) سورة الذاريات ، الآية ٤٩ .

(٤) يراجع في هذا الموضوع كتاب « العمل قدرة وإرادة » للأستاذ « جودت سعيد » .

ولنتأمل أحوال العالم الذي نعيش فيه . . إنه يكشف لنا أن العالم الإسلامي فقير في الصواب ، بينما يفتقر العالم المتحضر إلى الإخلاص ، وإن كان أغنى في الصواب . ولذلك فإن العالم الإسلامي لا يعرف كيف يخلص نفسه وغيره . . بينما الآخر لا يريد أن يخلصهم بل يستعمل ما عنده من العلم لإبقائهم تحت سلطانه .

ومن نهل من معين الإخلاص والصواب :

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

العروة : هي صلة الوصل بين طرفي الثوب : الإخلاص والصواب ، تلك هي الصلة المتينة التي لا تنقطع بين الإنسان - وهو الذرة التائهة في هذا الكون العريض - والركن الشديد . ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾^(١) . المؤمن المحسن يأوي إلى ربه يبته أشجانه وآماله . . وما أفضح حال من قطع الصلة بينه وبين ربه . . ضرب الله له مثلاً في القرآن . . كمثل الذي خرَّ من السماء ﴿ فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾^(٢) . هذا الإنسان المقطوع - الأبتَر - لا يصمد لمتاعب الحياة ومصائبها فهي تخطفه وتقطعه وتهوي به . . فيا للهول . . و ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٣) !؟ وأين هذا الأبتَر من صورة داود عليه السلام ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ، وأنا له الحديد ﴾^(٤) ، ومن صورة نوح عليه

(١) سورة محمد ، الآية ١١ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٣١ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٩ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ١٠ .

السلام ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾^(١) . . فاهتز الكون كله لنصرته
استجابة لأمر الله ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض
عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح
ودسر﴾^(٢) .

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾

فلا تغتر بالنتائج العاجلة ، ولا تستغرق اللحظة الحاضرة . .
فالمهم ما هو خير وأبقى ، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً .
ولقد تكرر الخطاب في القرآن للإنسان بتأمل العاقبة وانتظارها
ومراقبتها ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾^(٣) . . إنه يأمر بدراسة
التاريخ ورؤية العواقب من خلاله . . فليس العاقل الذي يجرب كل شيء
ليرى عواقبه - لأن هذا فيه ضياع الجهد والعمر وفوات الفرص - لكن
العاقل يختزل الجهد والوقت بالاستفادة من التاريخ . وعندما نستقدم
التاريخ ليقدم شهادته للدين بأنه شرط لبقاء الأمم . . عندها يصبح الدين
علماً والعلم ديناً .

فهنيئاً لك أيها المؤمن فقد ضمنت العاقبة ﴿ألا إن أولياء الله لا
خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾^(٤) .

وفي المقابل :

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرَهُ

-
- (١) سورة القمر ، الآية ١٠ .
 - (٢) سورة القمر ، الآيات ١١ - ١٣ .
 - (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٣٧ .
 - (٤) سورة يونس ، الآيتان ٦٢ - ٦٣ .

والداعي إلى الله يتألم من الكفار . . ويتألم لهم : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ (١) فيأتي التخفيف من الله والعزاء . . لا تحزن فإن الفرص كانت أمامهم مفتوحة فأهملوها . . لا تحزن فإن لهم يوماً يقفون فيه أمام الله فيواجههم بأعمالهم التي جهروا بها ونواياهم التي ستروها . .

إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾
نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا

نمتعهم في الدنيا . . فهي عاقبة قريبة لا ينبغي أن نخدع بها . . فهم يتمتعون بحسب ما يستخدمون من سنن الكون ويسخرون . . يزرعون فيحصدون . . يتعلمون العلم المادي ويستخدمونه في التقدم والرفاهية والتسلط فيحصلون . . ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ (٢) .
متاع قليل . . قصير المدى مهما طال ولو استمر طيلة حياته . . فإن العاقبة الأخيرة :

ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

إكراهاً . . فلا أحد يرغب في العذاب لكنهم قدموا أسباب العذاب ، فلا بد من حصولهم على النتائج . . إنه قانون . . ومعادلة كمعادلة الكيمياء :

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات ١٨ - ٢٠ .

إسلام + إحسان = نجاح في الدنيا والآخرة .

كفر + إفساد = عذاب في الدنيا والآخرة .

إني لأتطلع إلى هذا اليوم الذي تبرز فيه هذه القوانين الاجتماعية - وأرجو أن نتذكر دائماً أنها قوانين جماعية وليست فردية - بالشكل العلمي الكافي بحيث لا يملك الإنسان أن يجادل فيها ، كما أنه لا يملك أن يجادل في أن :

أوكسجين + هيدروجين = ماء وذلك بوجود الشرارة الكهربائية
وضمن الشروط النظامية من الحرارة والضغط .

اعتراف الفطرة بالله الخالق

وكيف يتخذون هذه المواقف مع أنهم يعترفون بالله خالقاً . . ؟!

وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

هذه الحقيقة يعترف بها الأكثرية من الناس العلماء منهم والبسطاء . . فالمشكلة ليست مشكلة إحداد . . يقول مالك بن نبي - رحمه الله - في إحدى محاضراته في دمشق - بتصرف - : «لو حاولنا أن نجري إحصاء لعدد الملحدين . . في الجزائر مثلاً ، فإن نسبتهم لا تصل إلى واحد بالألف . لأن مسألة الإيمان بالله هي حقيقة واضحة كالشمس لا تحتاج إلى دليل يصرف جهوده الآن ليأتي بأدلة جديدة على الإيمان بالله يضيع الوقت علينا وعلى نفسه . . » .

فما المشكلة إذن؟! **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** تأتي وكأنها جملة اعتراضية . . الحمد لله الذي جعل فطرة الإنسان تهتدي بسهولة إلى الإيمان بالخالق .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

هذه هي المشكلة . . وكما قال في آية أخرى : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾^(١) . . إن الإيمان بالله الخالق هو إحدى البدهيات . . ولكن وجود هذه البدهية وحده غير كافٍ . . ولا بد من العلم . . ومن طلبه وتحصيله باستمرار . . والدليل في هؤلاء الذين يعرض القرآن علينا مشكلتهم ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ : الله . . ﴾ ومع ذلك فإن هذا لم يصل بهم إلى درجة السلوك الصحيح .

وكم من أناس يقولون نؤمن بالله ، ومع ذلك يقولون : الإسلام لا يصلح لهذا العصر . !! وهذا يدل على جهل :

أ - بمعنى الألوهية .

ب - وبالإسلام .

ج - وبأوضاع من يخالف الإسلام .

وأذكر منذ سنوات أنني سمعت إحدى المسلمات تقول : لو أن الإسلام لم يحرم الخمر لكان الاتحاد السوفييتي أكثر سكانه مسلمين . . لأن الخمر عندهم ضرورة يقتضيها مناخهم البارد . وحدث في ذلك الوقت أن سمعت - عَرَضاً - خبراً من المذيع مفاده أن الاتحاد السوفييتي يشن حملة مكافحة ضد الكحول لأنه أدى إلى أضرار جسيمة في المجتمع . . !!

المشكلة أننا لا نعلم . . وليست المشكلة - كما يقول البعض - أننا

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٤ .

قدسنا العلم وأصابنا العلم بالغرور فأعرضنا عن القرآن .

ولقد سبق أن أشرت إلى هذا الموضوع مراراً . . ولكن هذا لا يكفي . . وكثيراً ما نخدع عندما نظن أن الموضوع صار واضحاً . . ولكن سرعان ما ينكشف أننا لم نفهم بعد . والوضوح في الرؤية لا يتم إلا بجهود تتناسب مع كمية الظلمات . . أذكر أنني كنت مرة في جلسة وكنا نستمع إلى أخت كريمة متعلمة تتحدث في موضوعات هامة . . ثم ذكرت تصنيفاً للناس فقالت : منهم صنف مخدوع بالعلم يقدسه ويغتر به . . والعلم لا يمكن أن يكون مرجعاً لأنه يتغير وينفي اليوم ما أثبتته بالأمس^(١) . . !! وطلبَ منها أن تذكر أمثلة . . فقالت : إن الناس كانوا يؤمنون بأن الأرض مسطحة ثم عرفوا أنها كروية . . !!

وهذه مشكلة أيضاً وهي : اختلاط الظن بالعلم والتباس الفرضية بالقانون . بينما يميز القرآن بوضوح بين العلم والظن يزكي الأول ، ويدين الثاني . . فما الظن ؟ وما العلم ؟

ينظر الإنسان في الحقائق الخارجية من حوله فتكون لديه صورته ذهنية عنها . . هذه الصورة الذهنية هي الظن - أو الفرضية - ولا تصبح هذه الصورة علماً إلا عندما تنطبق على الحقيقة الخارجية . . فالناس قد ظنوا أن الأرض مسطحة . . ثم جاء البرهان العلمي الذي أثبت كروية الأرض . . وهكذا فالعلم يتقدم فيكشف باستمرار ما كان غامضاً . . والظن هو الذي يتبدل وليس العلم . .

ولكن أليس من الممكن أن نخدعَ هنا وننتقل من ظن إلى ظن بدلاً

(١) ومن المؤسف أن هذه الفكرة تجدها أحياناً في كتب إسلامية لكتاب مشهورين .

من العلم . . ؟ ولعل هذا الخوف يقوى أكثر عندما نتذكر أن وسائل المعرفة التي نملكها لها حدود وتعرض للخداع . . فالأذن لا تسمع إلا موجات معينة . . والبصر يرى رصيفي الطريق يلتقيان على المدى الطويل . . ويرى القلم المغموس في الماء مكسوراً . . فكيف يمكن أن نثق بما وصلنا إليه على أنه الحق ؟ ! كيف نتثبت أن الفكر الذي انتهينا إليه هو القانون أو العلم ؟ !

وهنا نشعر بمنة الله علينا إذ منحنا مقياساً لا يخطيء، نمتحن به صحة أفكارنا وهو التسخير . . فالكيميائي مثلاً لم يستطع أن يجزم بقانون تركيب الماء إلا بعد أن مارس تحليله وتركيبه . . فالقانون لا يصبح قانوناً إلا عندما نستخدمه في السيطرة على الأشياء حتى تأتينا طائعة راغمة . .

والله سبحانه وتعالى يقرر أنه خلق كل شيء ليخدم الإنسان مجاناً، ويسلس له القيادة ﴿مسخراتٍ بأمره﴾^(١) . . لكن بشرط أن يعرف سنته وقانونه . . فإذا لم يتسخر لك الكون . . معنى ذلك أن أفكارك عنه غير صحيحة . . وأنت ما زلت تتخبط بالفرضيات والظنون . . فارجع ودقق في البحث حتى تكشف موضع الخطأ وتصحح فهمك . . فالأفكار لا تصبح علماً حتى تنجح في امتحان التسخير . .

ولا بد أن نلاحظ أن العلم قد خدم الإنسان أيضاً حين أعطاه أبعاداً جديدة لوسائل المعرفة : - السمع والبصر - مثل المكبرات والمجاهر والمراسد ؛ وبذلك يفتح الإنسان مجالات أوسع للعلم والتسخير . .

مما سبق نرجع ونقول : العلم هو إدراك السنن . . والسنن لا تتبدل

(١) سورة النحل ، الآية ١٢ .

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾^(١) لكن علمنا بها هو الذي ينمو ويزداد . .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فالقرآن هنا يشخص داء الأكثرية بأنه فقدان العلم . . ونحن نرى العالم الإسلامي - قبل غيره - يتخبط في واقعه السيء . . لأن النتائج تأتي بحسب الأعمال ، والأعمال تأتي بحسب الأفكار . . أي :

فكر سيء يعطي عملاً سيئاً ، وهذا يعطي واقعاً سيئاً .

والفكر هو : ما بالأنفس ، والواقع هو : ما بالقوم .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(٢) . . فكيف ينبغي أن تستنفر الجهود لمكافحة جرثومة الجهل . . !؟

إن المجتمع يكافح الأوبئة بغرس مبادئ النظافة وأساليب الوقاية من الأمراض في النفوس ، ثم بتعميم اللقاحات والأدوية والإكثار من الأطباء والمشافي . . وكل هذا مطلوب في مكافحة جرثومة الجهل . . إذ ينبغي أن نبدأ بغرس حب العلم في نفوس الناشئة حتى تسود المجتمع ثقافة تجعل العلم خبزاً يومياً لا غنى عنه . . « إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم »^(٣) و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة »^(٤) و « إن الملائكة لتضع

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية . وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

أجنتها لطالب العلم رضاء بما يصنع»^(١) و«العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) و«فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»^(٣) . . هذه الأحاديث والآثار - ومثلها كثير - ينبغي أن تتحول إلى مفاهيم تترسخ في الأعماق ، لتعطي المسلم موقفاً علمياً ومساراً يتسم بطلب العلم . . ويأتي بعد ذلك الإكثار من المؤسسات العلمية واستنفار العلماء والمختصين في كل المجالات ليوحدوا جهودهم في رفع المستوى العلمي . ونقطة الانطلاق تبدأ من الإنسان ذاته . . وهو أول من يجني ثمار الجهل الخبيثة . . إنه بجهله وسوء تصرفه لن يضر الله شيئاً . . لكنه يضر نفسه . . لأن :

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وطريق العلم ليس سهلاً . . لكنك تحتاج إليه أيها الإنسان لتنقذ نفسك . . لا لتزيد في ملك الله وعلمه شيئاً . . فإن الله بيده ملك كل شيء وعنده العلم المحيط بكل شيء . .

علم الله وقدرته

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

والكلمات : هي الصورة اللفظية أو الكتابية للعلم . . والآية تمثل

(١) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح .

لنا بصورة عجيبة علم الله الواسع الذي لا ينفد . . تنفذ الأقلام كلها ،
وينفذ كل مداد . . لكن علم الله لا ينفد وكلماته لا تنتهي . . فما أبعد
المدى بين علم الله الكامل المطلق . . وعلم الإنسان القليل الذي لم
يكشف بعد كنه الحقائق التي يراها كلها . . فكيف بما لا يرى . .؟! .

ويمكن أن نرى بعداً آخر للآية إذا فسرنا كلمات الله على أنها
خلقه . . أي كلمة التكوين الإلهية ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له :
كن ، فيكون ﴾^(١) . فكلمات خلقه لا تنفذ ، وخلقته في ازدياد ﴿ يزيد
في الخلق ما يشاء ﴾^(٢) وإن الزيادة في الخلق معناها أن يزداد الإنسان
طلباً للعلم كي يصل إلى التسخير . أما تصوّر الكون على أنه خلق انتهى
نموه وتوقفت حركته ، فإنه يثبط همة الإنسان ويحرمه من الإثارة والتطلع
إلى كشف عوالم جديدة . . إن في ذلك تعطيل لنشاط الإنسان وحركته
العلمية . . وإن الزيادة التي حدثت في الإنسان وحده - ما بين الإنسان
البدائي والإنسان المعاصر - لجديرة بالتأمل والنظر . .

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ :

قادر على تسيير دفة الكون وفق إرادته . . وزيادة خلقه وكلماته . .
عزيز . . لا يفتقر إلى أحد وكل أحد يفتقر إليه . . حكيم : يضع كل
شيء في مكانه ، ويشرع للإنسان ما يناسبه . فما أجهل وما أشقى من
يعرض عن آيات الله!!! . . إنه يعاند أمر العزيز الحكيم . .!!! سبحانه
وتعالى لا يعجزه شيء من أمر خلقكم أو بعثكم . . وإن الذي خلقكم لا
يعجزه بعثكم بل هو أهون عليه . .

(١) سورة يس ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ١ .

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

فاتقوا يوم البعث بين يدي الله السميع البصير الذي أحصى عليكم أعمالكم ، واطلع على نواياكم . .
والآية تشير إلى وحدة البشرية وكأنها النفس الواحدة مرت بدور الطفولة وهي تستفيد من كل خبراتها الماضية . . ونحن نحتاج إلى سبر أغوار ماضيها في طفولتها لنعرف كيف نخطط لمستقبلها . . ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾^(١) لأن الذي عرف كيف بدأت الأمور ثم كيف سارت وتطورت . . هو الذي يستطيع وضع خطط التنمية للمستقبل .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٢٠ .

الفصل الرابع

الله هو الحق

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ
 كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
 فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
 ﴿٣٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ
 عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنِ الْوَالِدِ ۚ شَيْءًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ
 حَقًّا فَلَا تَغْرُبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ
 الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ
 وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
 وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ السَّجْدَةِ
 آيَاتُهَا ٣٠
 مَرْتَبَاتُهَا ٢٢

حين يتحدث القرآن عن الكون يتحدث عنه من جانبين : على أنه مسخر للإنسان . وعلى أنه دليل على الله وقدرته وعلمه . . وفي الجولة السابقة كان التركيز على الجانب الأول أكثر . . والآن يركز على الثاني أكثر . .

هذا الكون بجلاله وإعجازه يشهد لخالقه . . والإنسان فيه تتابه لحظات من الرعب والهول حين تتقاذفه قوى الكون الهائلة ، فيلجأ حينذاك إلى ربه وربها لأنه مُستيقن في أعماقه أن قوى الكون لا تنصاع إلا إلى الله . . وأنه وحده تعالى الذي يقول للنار : ﴿ يا نور كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾^(١) فتكون كما أراد . . ذلك بأن خالق السنن هو الذي يوقفها أو يعطلها . . فأين حولك وطولك أيها الإنسان الضعيف . . ؟ ! وكيف بك أمام هول القيامة . . ؟ ! وكيف لا تتخذ إجراءات النجاة لذلك اليوم . . ؟ ! أفنتسى أنك عبد لا يجاوز حدّه أمام عتبات باب الغيب الذي لا يعلمه إلا الله . . ولا تستطيع التحكم في لحظة موتك أو بعثك ! ؟

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٩ .

وَيَعْرَضُ فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ ثَلَاثَةَ مَشَاهِدٍ مِنَ الْكُونِ آيَاتٍ دَالَاتٍ عَلَى
اللَّهِ . .

الكون دليل على الله

١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل . . مشهذان رائعان
يوحيان بالقدرة والتدبير والإحكام . . بل وبالإحسان ﴿ الذي أحسن كل
شيء خلقه ﴾ (١) . . ألا ترى أنهما حتى الآن مصدر وحي وإلهام للأدباء
والشعراء والفنانين . . ﴿ والليل إذا عسعس . والصبح إذا
تنفس ﴾ (٢) . . لا تدع طول الألفة يذهب بهذه الروعة المتجلية في
الغروب والشروق . . افتح عينيك وانظر كأنك ترى العالم من جديد . .

٢ - وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

وعلاقة الشمس والقمر بالليل والنهار واضحة . . إنها الدورة
الفلكية المنتظمة للأرض والشمس والقمر . . ﴿ كل يجري إلى أجل
مسمى ﴾ إلى موعد محدد . . هذه الطاقات المتحركة المُسَيَّرَة - دون
وعي أو اختيار - مسخرة لتيسير حياة الإنسان وتنظيمها إلى يوم القيامة .
هذه الحقائق المرئية المسلم بها ، يجمع إليها حقيقة غيبية لا
نراها .

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

(١) سورة السجدة ، الآية ٧ .

(٢) سورة التكويد ، الآية ١٧ .

وينبغي أن تؤمن بذلك مثل إيمانك بما تراه من الآيات السابقة ،
والقرآن يأتي بعالم الشهادة كدليل على عالم الغيب .

وكثيراً ما يتعرض القرآن عند حديثه عن الآيات الكونية لذكر
المتقابلين - الشيء وضده - وذلك وفقاً لقاعدة التزاوج التي بني عليها
الكون ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾^(١) . وهنا يلفت
النظر إلى متقابلات : الليل والنهار ، الشمس والقمر . . بل وتقابل من
نوع آخر بين طاقة كونية تتحرك بغير وعي أو اختيار والطاقة الإنسانية التي
تعمل بملء إرادتها - فهي طاقة واعية مسؤولة - ألم تر إلى هذين
المظهرين من مظاهر الوجود في خلق الله : الكون والخلق الآخر ﴿ ثم
أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾^(٢) . إن الله سبحانه
وتعالى لن يلزمك أيها الإنسان بالسير في اتجاه معين كما ألزم الشمس
والقمر والأرض . . لكنك باختيارك أي طريق من الطريقين - الغي أو
الرشاد - لن تخرج من سلطانه . . فهو خبير بما تعمل . . وستحطم في
النهاية - باختيارك الغي - على صخرة القوانين والسنن . . ﴿ يا معشر
الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض
فانفذوا . . ﴾^(٣) . . وإن عظمة القدرة الإلهية لتتجلى هنا . . فالإنسان
مهما بلغت قدرته لا يستطيع أن يصنع جهازاً حراً . . وكل ما اخترع من
الأجهزة إنما تمشي وفق إرادته . لكن الله سبحانه وتعالى خلق خلقاً
آخر . . إنساناً حراً يختار ويعمل بما يختار ودون أن يؤثر ذلك على
ملك الله في شيء . . وبرغم حرية هذا المخلوق وسلطانه الذي منحه

(١) سورة الذاريات ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ١٤ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٣٣ .

الله إياه - حين سخر له السموات والأرض و . . . - فإنه لا يستطيع أن يفلت من يد الله وحسابه على ظلمه وبغيه . . . ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

إن هذا ليدل على أن الله وحده هو الحق . .

وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ

وكما ذكرت سابقاً : إن الشرك هو نتيجة للفهم الخاطيء . فعدم إدراك الأسباب الحقيقية للأشياء ، وعدم إدراك السنن يجعلك تتجه إلى أسباب وهمية ترجو منها النجاح والتوفيق . . وتعليق الأمل على هذه الأوهام هو رجاء الباطل ودعوته من دون الله . وكل مزاعم البشرية حول موضوع الألوهية . . وكل المبادئ والقيم التي تعطى لها الأولوية من دون الله فهي شرك وباطل . . لأنها فشلت في إدراك المعاني السليمة للحياة . . وفشلت في إصلاح الحياة وتجنب الفساد . يقول المؤرخ ويلز : « وربنا الحقيقي اليوم : رب العالمين أجمعين . ويجب أن تذهب الوطنية بوصفها رباً إلى حيث ذهب رب القبيلة » (٢) .

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

وكل شيء غيره صغير مفتقر إلى من يخلقه ويرعاه . . وكل شيء غيره يسقط ويفنى . . ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (٣) . . ﴿ كل من

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤ .

(٢) الجزء الرابع من معالم تاريخ البشرية .

(٣) سورة القصص ، الآية ٨٨ .

عليها فإن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿١﴾ .

٣ - الْمَرَّانَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ

﴿ألم تر . . ؟! انظر . . استعمل وسائل المعرفة . . وكما عبر عن الشمس والقمر بالجريان . . فإن الفلك تجري أيضاً . . لكن الفارق هنا أن الإنسان قد تم له التسخير في موضوع الفلك ، فلقد كشف القوانين التي أودعها الله في البحر ومائه وخصائص المواد التي تصنع منها الفلك من خشب ومعادن . . ودرس الرياح وتيارات البحار . . والضغط الجوي . . ولم يتم له ذلك دفعة واحدة . . فهو منذ القديم يستخدم الفلك ويستفيد من كوارثها بكشف موضع الخلل . . وجنى من ذلك فوائد جمية . . فلقد كشف معالم الأرض بالرحلة في السفن . . واستعملها كوسائل مواصلات وناقلات بترول وثروات أخرى . . وحتى حاملات للطائرات . . فكأن الآيات هنا تحث الإنسان على التقدم في التسخير . . فالشمس والقمر مسخران أيضاً ويجب على الإنسان أن يسعى لتسخيرهما كما سخر الفلك . .

﴿تجري في البحر بنعمة الله﴾ . .

وتحت رحمته . . فلو اختلت نسبة واحدة من نسب الكون لما جرت السفن على سطح البحر . .

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ

فمن كان يطلب الآيات والمعجزات فليتأمل من حوله ، فإن الكون مليء بالآيات . . والقرآن هنا يحرك في الإنسان حب الاستطلاع ، يحرك الدافع العلمي . .

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٧ .

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ . .

من هو الذي يدرك هذه الآيات ؟ والآيات هي الأدلة والبراهين . .
وهي السنن والقوانين . .

أستطيع أن ألمس هنا بوضوح تحريك الدافع العلمي . . والإشارة إلى الشروط التي يجب أن تتوفر في طالب العلم . . إن كشف الآيات والسنن يحتاج إلى صبر ودأب واحتمال لما يصيبك من أذى البحث والدرس . . والشكور لنعم ربه هو الذي يسعى لفهم أبعادها أكثر حتى ينتفع بها أكثر . . وهو الذي يسعى لتسخيرها في الخير تعبيراً عن شكره لله فيها : ﴿ اعملوا آل داوود شكراً . وقليل من عبادي الشكور ﴾ (١) . . حتى لقد سُمِّي الشكر : عرفان الجميل . . أي أن تعرف قيمة ما قدم إليك من معروف . ولا يشكر نعم الله من لم يفهمها حق الفهم . . أي أن الشكر والصبر يكونان سبباً لتحصيل العلم ، ونتيجة له أيضاً في آن واحد . . فهما صفتان لا بد من قسط منهما عند البداية . . ثم يحدث النمو فيهما باستمرار مع نمو العلم . .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

صبار في الضراء شكور في السراء . . ونحن في حاجة إلى تأمل عميق لما يعاني الإنسان وتقلبه في أحواله وما الشيء الذي يعطيه التوازن والتماسك . . فمن الذي يستطيع أن يصبر ويشكر ؟ ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين . . الذين هم على صلاتهم دائمون . . ﴾ (٢) الذي يتصلون بالله هم الذين

(١) سورة سبأ ، الآية ١٣ .

(٢) سورة المعارج ، الآيات ١٩ - ٢٣ .

يتمتعون بالتوازن والتماسك الكافي . . ورسول الله ﷺ يحدد الإيمان منبعاً للصبر والشكر « عجباً لأمر المؤمن . . إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) . .

وأحب أن أشير هنا إلى أن كلمة الإيمان أعمق من أن تكون حماسة عاطفية فحسب ، بل إنها تدل على قناعة راسخة في الأعماق تعطي ثبات الموقف . . ولهذا أقول: إن الإيمان المدعوم بالعلم . . من مصادر الصبر لأنه إن لم يدعم بالعلم فقد يؤدي دوراً ويقف مواقف جيدة ، لكنه معرض للتبدد ولا ضمان له في المستقبل . يقول ويلز في آخر تاريخه : « والقوى الجامحة التي ظلت حتى اليوم في الفرد والمجتمع تكافح وتتغلب على العنيف الشرس والسافل الوضيع . . من الدوافع التي تفرق بين المرء وأخيه كانت هي قوى الدين والعلم . إن التعليم ينبغي له أن يصبح من فوره دينياً في مقاصده وروحه » (٢) . . إن المؤرخ هنا يوضح أن منبع القوة الأخلاقية - التي هي المحرك الدائم لارتقاء الإنسانية - وهي : الصبر والشكر والحب والتسامح . . إن المنبع هو الدين والعلم . ونستطيع أن نقول أيضاً : إن الإنسان الذي تتحكم فيه العواطف لا يستطيع أن يصبر ويشكر . لأن معنى الصبر : أن لا تخرجك المصيبة عن طورك وتجعلك تترك أداء الواجب وتستسلم للحزن واليأس . والشكر : أن لا تخرجك النعمة عن طورك ، ولا يصرفك الفرح عن أداء الواجب . . ونحن مطالبون بمستوى لائق من التوازن العاطفي ﴿ لكي لا تأسوا على ما

(١) رواه مسلم .

(٢) الجزء الرابع من معالم تاريخ البشرية .

فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴿١﴾ ، لأن الإنسان العاطفي معرض لأن يتلاعب به الخبثاء عن طريق إثارة عواطفه . . ولكي تصبح الرؤية أوضح سنتأمل أمثلة في هذا المجال : ماذا نفعل لو توجه طفل إلى جهاز دقيق وثمانين - نخشى عليه من التلف - يريد أن يلعب به؟ . إن قطعة حلوى نلوح بها كفيلة بجعله ينسى هدفه . فإذا انتقلنا في المثال إلى مستوى أعلى لتأمل كيف تم صرف الدعوة إلى الله عن هدفهم . . فكثيراً ما تؤدي المنح والمناصب دورها في صرفهم (٢) . . وإلا فيمكن تحريك الغضب لأمر صغير تلهي عن الهدف الأسمى . . ألم تشهد مرة مجلساً تمكن فيه أحد الخبثاء من صرف داعٍ يتكلم بطلاقة عن الإسلام عن حديثه بإثارة غضبه لشيخه أو انتقاد المشايخ عامة . . ؟ ! فإذا بالجلسة تتحول من كونها غداء فكرياً نفسياً ينتعش به كل إنسان إلى مهاترات ممجوجة تثير الاشمئزاز !! .

ومرة أخرى ننتقل بالمثل إلى مستوى أوسع . . إن الشعوب التي تتحكم فيها السياسة العاطفية يمكن للدول الكبرى أن تتلاعب بها . . وكم لعبت القروض المالية وصفقات بيع الأسلحة . . وتقديم المساعدات . . دوراً في عرقلة الأهداف الكبرى . . لقد كادت الدول العربية تحقق الانتصار في عام (١٩٤٨) على إسرائيل لولا انشغال كل دولة - في اللحظة الأخيرة - بتوسيع رقعة حدودها . . حتى ضاع النصر وضاعت فلسطين . .

ومالك بن نبي - رحمه الله - يذكر مثلاً آخر حين يشبه فكرة إنشاء

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٣ .

(٢) تحدث مالك بن نبي رحمه الله في مؤلفاته عن الاستعمار ، وكيف صرف جمعية العلماء في الجزائر عن عملية البناء والتعليم للإنسان بشغلها بتحصيل بعض الحقوق .

باكستان بقطعة الحلوى التي لَوَّحَ بها الاستعمار البريطاني في وجوه المسلمين ، فكسر بذلك شوكة النضال الهندي الموحد ومزَّق الهند ، وشغل المسلمين بالدولة عن الدعوة . . وكانت بعد ذلك نزاعات وحروب دامية بين الهندوس والمسلمين . . وكانت بعد ذلك باكستان دولة للمسلمين لا تسمن ولا تغني من جوع . . وإننا - حتى الآن - لم نستوعب العبرة من حكاية العملاقين التي نحكيها لأولادنا^(١) . .

وحين نبحت في كل هذه الأحداث عن أصابع الاستعمار ، ينبغي أن لا يفوتنا أننا نحن الذين سمحنا له بهذا التأثير . . هذه العمليات التي يقوم بها الاستعمار في الدول المتخلفة ، (والتي سماها مالك بن نبي الصراع الفكري ، وأفرد لها كتاباً خاصاً)^(٢) . . إنما تبني على اللعب بالعواطف . . ولا تنجح إلا في البيئات التي تفتقر إلى التوازن العلمي والموضوعية ، وتتسم بطابع السياسة العاطفية . . فلا بد إذن من تغيير البنية الفكرية والنفسية عندنا . . ونحن بحاجة إلى أسلوب جديد في التربية نعلم الإنسان فيه الموضوعية ، وكيف يضع عاطفته في مكانها تحت سيطرة العقل . . وإن الاستمرار في الأسلوب الشائع في التربية والتوجيه المبني على التأثير العاطفي ودغدغة العواطف وإشباعها ، لا يمكن أن ينقذ الأمة . . إن طريق العاطفة محفوف بالمخاطر إن لم تسلط عليه أنوار العلم . . إن الصبر والشكر ليس معناه انعدام الشعور بالفرح أو الحزن . . ولكن الصبر والشكر هو وضع العواطف تحت سلطان

(١) تحكي هذه القصة بأن رجلاً استطاع ان يتخلص من عملاقين روعا الناس ، بأن صعد على الشجرة التي ينامان تحتها ، ورمى كل واحد منهما بحجر . . فظن كل واحد منهما السوء بصاحبه فتقاتلا . .

(٢) انظر كتاب « الصراع الفكري » للأستاذ مالك بن نبي .

الفكر . . وهو مستوى من التوازن والفعالية يجعلك تُحوّل الحزن إلى عمل فعال - الصبر - ، والفرح إلى شكر^(١) . . أما أيهما أصعب تحقيقاً الصبر أم الشكر؟ إن الناس عادة يلجؤون إلى الله في الشدة ، وإذا أصابهم الخير نسوا الله وفضله ، ولهذا يقال : إن الصبر على النعمة أصعب من الصبر على الشدة ؛ والصبر على النعمة هو الشكر .

الإنسان يلجأ إلى الله عند الشدة والهول

والآيات هنا تعرض علينا صورة الإنسان الغافل عند النعمة ، ولكن يجأر إلى ربه عندما تصيبه شدة . وتعرض صورة فزع تهز استقرار الأمنين السادرين .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ

هذه السفن تجري بإرادة الله ، حتى لو حسب الناس لكل أمر حسابه في صناعة السفن وقيادتها . . إذ لو أراد الله لزلزل البحر فيها ، فإذا هي كالريشة في مهب الريح . . الهول يحيط بها من كل مكان . . وكم من سفن وغواصات صنعت وفق أحدث الاستعدادات فغرقت عند التجربة الأولى^(٢) . إذ أنه لا بد من التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب اللازمة . فنحن لا يمكن أن نستغني عن رحمة الله ورعايته .

والآية هنا تلتقط صورة واقعية للعاصفة . . الموج وقد ارتفع كالظلة

(١) يقول عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً . وذلك بدلاً من أن يعطي الفرح فخراً واختيالاً وبخلاً ، ويعطي الحزن يأساً وتراجعاً عن الخير .

(٢) كما حدث للباخرة تيتانيك عام ١٩١٢ .

فوق السفينة . . ومحمد ﷺ لم يركب البحر في حياته ، فلا يمكن أن يأتي بهذا الوصف من عنده . . فالآيات تحمل دليلاً معها . .

فماذا يفعل الإنسان في تلك الساعة . . !؟

فَلَمَّا نَجَّوهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ

أي متوسط في أعماله وشكره كما تدل آية أخرى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ (١) .

إن من شاهد تلك الأهوال في البحر ، ثم أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغي عليه أن يقابل ذلك بالإكثار من الصالحات والدأب على العبادة والشكر . .

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

(ختار) : غدار . وهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل من الختر ، وهو أشد الغدر . وأن يفاجيء الإنسان غيره بغدر غير متوقع : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم . . !؟ ﴾ (٢) . وكلما أصيب الإنسان بأزمة أو ضيق أو مرض خرجت منه عهود لله . سرعان ما ينساها بعد ذلك . . !!

فكيف بهول يوم القيامة ؟ !

فإذا كانت أهوال الدنيا تهزكم وتزلزل قلوبكم فكيف بكم أمام هول القيامة . !؟ ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ،

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٠ .

أبصارها خاشعة ﴿ (١) .

والآية هنا تتوجه إلى الناس كافة بنداء التحذير والإشفاق والنصح
بتقوى الله وخشية ذلك اليوم . .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم

﴿ يا أيها الناس ﴾ : فالقرآن دعوة عالمية . . وحامل هذه الدعوة
ينبغي أن يكون إنساناً عالمياً يتصف بالمؤهلات الكافية للقيام بها . . إنها
لمؤهلات علمية وأخلاقية . . وكلما ازداد علم الإنسان اتسع صدره
وعرف كيف يكون البحث مثمراً بين أطراف مختلفة . . كنت قد قرأت
مقالاً جيداً للأستاذ أحمد كمال أبو المجد يتحدث فيه عن أدب الحوار
حيث يسمي فيه الجدال مبارزة كلامية لأنه لا يثمر إلا الجراحات
والأحقاد (٢) . . يقول : « إن أمتنا قد فطنت في مرحلة مبكرة من تاريخها
الحضاري إلى أهمية إرساء منهج واضح وآداب يلتزم بها أطراف
الحوار . . وتحت عنوان آداب المناظرة وضعوا نوعين من القواعد :
أخلاقية وموضوعية . النوع الأول : يقصد به حماية أطراف الحوار وحفظ
الود بينهم . والثاني : يقصد به خدمة موضوع الحوار أي منهج
البحث » (٣) .

وذكر من القواعد الأخلاقية :

١ - أن يتناول المتحدث الفكرة دون أن يتجاوزها إلى صاحبها .

وأن لا يتحدث عن نوايا الطرف الآخر .

(١) سورة النازعات ، الآية ٦ .

(٢) وهو حوار الطرشان كما يسميه آخرون .

(٣) مجلة المسلم المعاصر .

٢ - الإفصاح للرأي الآخر وعدم تخطئته مقدماً .

ويذكر من القواعد الموضوعية :

١ - احترام الحقيقة والأمانة في عرضها بنصها وإطارها . .

٢ - تحديد الموضوع ، وتحديد مواضع الاتفاق والاختلاف .

ولنا أن نتأمل أيضاً بعض اللمسات القرآنية التي تساعد في تكوين الشخصية العالمية التي كلفت بحمل هذه الرسالة . . وعلى رأسها توفر المحبة للآخرين والرغبة الصادقة في إنقاذهم . . ولقد بلغت هذه المحبة عند رسول الله ﷺ حداً جعلته يكاد يهلك نفسه أسفاً على المعرضين ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً . . ﴾ (١) .

ومن القواعد الأخلاقية أيضاً : سعة الصدر التي تجعلك مستعداً لأن تقابل الإساءة بالإحسان .

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (٢) .

وفي أدب الحوار لك أن تتأمل ثلاثة مستويات ذكرها القرآن الكريم :

١ - عدم بخس الناس أشياءهم : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ (٣) ، والكف عن تحقير أفكارهم ومقدساتهم : ﴿ ولا تسبوا

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٨٥ .

الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زيننا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

٢ - الوقوف مع الطرف الآخر على قدم المساواة : ﴿وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون﴾ (٢) .

٣ - التعامل بالإيثار بحيث تعطي للطرف الآخر احتراماً أكبر : ﴿لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون﴾ (٣) .

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . . .﴾ .

إنه نداء الإشفاق للناس كافة كي يتقوا ذلك اليوم . . . ﴿فول للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضي الأمر وهم في غفلة ، وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون﴾ (٤) .

يا أيها الناس . . يا من علمتم أولادكم الخوف من كل شيء إلا من الله . . !!

يا من جريتم وراء زاد الدنيا وتنافستم عليه . . وأهملتم التقوى خير الزاد . . !!

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٧ .

(٢) سورة هود ، الآيتان ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٢٥ .

(٤) سورة مريم ، الآيات ٣٧ - ٤٠ .

يا من تحرصون على أن تحسبوا لكل شيء حساباً . . إلا
القيامة !! . .

« ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ،
فيقول له : ألم أنعم عليك ؟ ألم أوتك مالاً ؟ فيقول : بلى . فيقول :
ألم أرسل إليك رسولاً ؟ ! فيقول : بلى . ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا
النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار . فليتنق أحدكم النار ولو بشق
تمرّة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة » (١) .

في ذلك اليوم « يقول الله : ﴿ يا آدم قم فابعث بعث النار ﴾ .
فيقول : وكم بعث النار ؟ فيقول : ﴿ من كل ألف تسعمائة وتسعة
وتسعون . . فذلك حين تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات
حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب
الله شديد ﴾ (٢) .

وَإِخْشَاءِ يَوْمٍ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وِلْدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئاً

ذكرت أم المؤمنين « عائشة » يوم القيامة فبكت فسألها رسول الله
ﷺ عن بكائها قالت : ذكرت الآخرة . هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟
قال : « والذي نفسي بيده ، في ثلاثة مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه :
إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم
يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أم بشماله ، وعند
الصراف » (٣) .

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه أبو داود وإسناده جيد . (وهذا ما قاله محقق إحياء علوم الدين في المجلد
الرابع عند صفة الميزان) .

أم المؤمنين عائشة تبكي على نفسها وهي زوجة نبي وابنة
صديق . . وهي من هي في العلم والفهم والتقوى . . ورسول الله ﷺ لا
يملك أن يخفف من جزعها ويطمئنها . . إنها القيامة . . وإنه الصراط :
جسر فوق جهنم لا بد من المرور عليه . . فأين الأهل وأين الأبناء !؟
﴿ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه ، وصاحبه
وأخيه . . ﴾^(١) .

« ثم يُضْرَبُ الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم
سَلِّمْ سَلِّمْ . . قيل يا رسول الله : وما الجسر ؟ قال : دَحْضُ مزلة - أي
أملس لا تثبت القدم عليه ، بل تزل - فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون
بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان . فيمرُّ المؤمنون كطرف العين - أي
بحسب أعمالهم ، فأحسنهم عملاً يمر كطرف العين ثم . . . - وكالبرق
وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب . فجاجٍ مُسَلَّمٍ ومخدوش
مُرْسَلٍ - أي هذا القسم الثاني يخدش بالكلاليب ، ثم يرسل ويترك
فينجو - ومكدوس في نار جهنم - أي يكردس ويلقي في جهنم . يقال :
تكدست الدواب في سيرها : إذا ركب بعضها بعضاً - حتى إذا خلص
المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله
في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار .
يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون . فيقال لهم :
أخرجوا من عرفتم فتحرَّم صورهم على النار فيُخْرِجون خلقاً كثيراً قد
أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه . . »^(٢) . وفي رواية :
« يعرفونهم بأثر السجود . تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود حرَّم الله

(١) سورة المعارج ، الآية ١١ .

(٢) من حديث طويل رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري .

على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا - أي احترقوا - .. « (١) ..

إن من لا يستحضر هول المحشر لا يتحرك .. و « من خاف (٢) أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (٣) .

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

لا يغرنكم الشيطان الغرور .. لا يخدعنكم بالبريق .. لا يصرفنكم بالعاجلة عن الباقية .. بالمتاع القليل الخاطف عما هو خير وأبقى .. ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (٤) .

خاتمة السورة .. المغيبات الخمس

وما لكم تؤجلون التوبة ..؟! أتضمنون أن تطول بكم الحياة كما تشاؤون .؟! أم عندكم علم الساعة وموعدها فأنتم مطمئنون ..؟!!

(١) من رواية مسلم عن أبي هريرة .

(٢) من خاف : أي من خاف البيات والتأخر . أدلج : سار من أول الليل .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية ٢٢ .

أين أنت من عالم الغيب أيها الإنسان . . ؟! إنك لم تبصر منه بعد
سوى لمحات .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

إنه عالم الغيب الواسع يحيط به الله . . بينما يقف الإنسان أمام
كوة بابه صغيراً ضعيفاً لا يرى إلا بالقدر الذي يسمح له به رب العالمين .

وتأمل التعبير القرآني في الآية مفيد :

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ . .

وهذا يفيد الاختصاص . . أي أن علم هذا الأمر خاص بالله لا
يعلمه إلا من أراد الله أن يعلمه إياه . . وتلك حكمة إلهية كي يبقى
الإنسان في حذر دائم ورحمة إلهية كي لا يقنط ويتوقف عن العمل لو
عرف اقترابها . .

﴿ وينزل الغيث ﴾ . .

اختلف التعبير فأصبح يفيد القدرة . . وقد يعرف الناس بالتجارب
والمقاييس قرب نزوله ولكنهم لا يقدرُونَ على خلق أسباب نزوله . . لأن
هذا يتم نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون . . ولكنهم يستطيعون
استخدام هذه السنن والقوانين لينزل المطر . . فيكون إنزال المطر من
الله الذي سخر للإنسان هذا الكون بقوانينه . . وهنا يحدث التباس عند
الناس فيظنون أن الله لا يبقى إلهاً ممجداً إلا إذا بقي الإنسان جاهلاً غافلاً
عن كل شيء وعاجزاً عن صنع أي شيء . . فإذا تعلم الإنسان وقدر على
التسخير يظنون أنه لم يعد هناك داع للإيمان بالله . . !!

وأذكر في هذا المجال أنني سمعت مرة إحدى طالبات الجامعة تُكفّر الذين يعملون في الأرصاد الجوية ، ويتنبؤون عن حالة الطقس . . . وكذلك كثير من المسلمين استنكر أن يصل الناس إلى القمر ، ولم يرد أن يصدق الحادثة وكأنه خاف على إيمانه أن يتزعزع . . . وكذلك صدرت تصريحات لبعض المسؤولين في الماضي قالوا فيها : لن نتظر بعد الآن رحمة السماء لأن الإنسان صار لديه من العلم ما يجعله يفيد من ماء البحر . . . وينزل مطراً صناعية . . !!

وعلى اختلاف هذه المواقف ، يمكننا أن نرى أن نقطة الخطأ واحدة والنتيجة التي يصلون إليها واحدة ، وهي أن الزيادة في علم الإنسان وقدرته على التسخير تنقص من مكانة الله - سبحانه - وتجعل الناس في غنى عنه . . !!؟

وهذا المستوى الفكري الذي يعيش فيه المسلمون - برغم تناقض الموقفين - يدل على أن المرض الفكري واحد وهو الظن بأن الدين والعلم لا يجتمعان . . . وأن عليك أن تختار إما طريق العقل أو طريق الإيمان . . . أما أن يجتمعا فهذا ما يصعب فهمه وترسيخه في الأعماق ، ولو مدحنا العلم بكلامنا وأفردنا لتمجيده صفحات وكتباً . . .

ولقد كان نمرود ينطلق في مناقشته مع إبراهيم من هذا المنطلق الخاطيء فهو يقول : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾^(١) لأنه ظن أنه باستخدامه أسباب الموت صار إلهاً مستغنياً عن الله . . . لكن إبراهيم قطع عليه الطريق حين قال له : غير السنن والقوانين إن كنت إلهاً : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر . . ﴾^(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ :

يعلم علماً أصلياً مطلقاً لأنه هو الذي يقول : كن فيكون . ولكن الإنسان قد يطلع بقدر ما يسمح له الله . . فيدرس . . وربما يكشف القانون الذي يحدد نوع الجنين ، ويستطيع أن يتنبأ بذلك وقد يصل الأمر به إلى التدخل أو التسخير . . لكن علم الإنسان مهما ارتقى لا يصل إلى خلق السنن أو تغييرها . . إنه ليس كعلم الله المطلق وإرادته النافذة .

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ . .

وقد يكون للإنسان برنامج يعرف به مبدئياً ما الأعمال التي سيقوم بها غداً وبعد غد . ولكن هل يستطيع الجزم والتأكيد . .؟! إن الإنسان لا يستطيع أن يجزم بما سيحدث له بعد قليل ﴿ ولا تقولنَّ لشيء : إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (١) .

هل تضمن هذا الغد . . ؟ وهل تضمن الحياة حتى تصل إليه؟! « صل صلاتك وأنت مودع » فإنك لا تعلم . . فلعلها آخر صلاة تؤديها بين يدي الله تعالى .

﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ . .

المستقبل من عالم الغيب الذي اختص به الله سبحانه وتعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً . إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ (٢) . . إلا بالقدر الذي يطلعنا عليه الله . . وهذا لا ينفي القدرة على التنبؤ . . فإن من عرف السنن ودرس الماضي والحاضر يستطيع أن يتنبأ بأشياء كثيرة من المستقبل . . فالذين درسوا الحضارات

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة الجن ، الآية ٢٦ .

يستطيعون التنبؤ بسقوط حضارة معينة معاصرة . . لكنهم لا يستطيعون تحديد المدة تماماً . كالطبيب يعرف أن المريض مصاب بداء ميؤوس منه فهو ميت لا محالة . . لكن متى . . ؟! ذلك في علم الله . واختصاص الله بمعرفة المستقبل فيه حكمة كبرى ورحمة كبرى للبشر . . حتى يبقى الإنسان في حالة توتر واستنفار دائم يحذر ويأمل ويسعى . . وحتى يتمكن من تأدية دوره في الحياة بتشوق وأمل . . لأنه لو علم مسبقاً كيف ستكون حالته في المستقبل لعجز عن الحياة . .

ولقد حاول الأديب توفيق الحكيم التعبير عن شيء من حكمة حجب عالم المستقبل عن الإنسان في قصة قصيرة تخيل فيها أن الإنسان استطاع أن يخترع جهازاً يكشف للإنسان عن صورته في المستقبل . . لكن صاحب التجربة الأولى فيه انتحر . . وتوالى عدد المجربين المنتحرين حتى أنقذ الأخير من محاولته وسئل عن سبب انتحاره . . فقال : « لطالما تخيلت المستقبل أجمل من ذلك وجهاً . . قد يدفعني إلى التريث والاحتمال أملي في أن يتغير في الغد شيء . . ولكن إذا كنت الآن أرى الغد بعيني . . فما قيمة الغد؟! ألم يسبق لك أن . . . شاهدت رواية من آخرها بعد أن فاتك الشطر الأول . . ؟ ماذا كنت تفعل بعدئذ . . ؟ . . وبعد أن تشاهد ما فاتك - في العرض الثاني - وتأتي الحوادث الأخيرة التي سبق لك مشاهدتها . . ماذا كنت تصنع . . ؟! يقول المحقق : كنت أنصرف طبعاً . يقول المنتحر : ولماذا تنصرف؟! فيقول المحقق : ولماذا أنتظر وقد عرفت الرواية . . ؟! فيقول المنتحر : هذا بالضبط ما صنعته أنا . . . عرفت روايتي بكل حوادثها وعقدتها ومفاجآتها فلماذا تريدني أن أنتظر . . ؟! » (١) .

(١) من مقال « الاختراع العجيب » في كتاب « أرني الله » لتوفيق الحكيم .

إن الله تعالى يقول لنا : ﴿ فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (١) . .
فإذا كنت لا تعرف ساعة موتك ، فمعنى ذلك أنك ينبغي أن تكون مستعداً
لمواجهته في كل ساعة . . مسلماً تائباً مصححاً لأخطائك . .

يتحدث « مالكولم إكس » - أحد زعماء الزنوج المسلمين في
أمريكا وقد قتل عام ١٩٦٥ - في مذكراته عن المرحلة الأخيرة من حياته
كيف كان يعيش في حالة من التوتر والفعالية لأنه يتوقع القتل في أي ساعة
من يومه . . كان يشعر أنه قد لا يعيش إلى صباح الغد ليرى يوماً
جديداً . . لهذا كان حريصاً على استغلال ساعاته بحيوية ونشاط . .

وحديث جابر بن عبد الله يصور نفسية من يتوقع الموت في كل
لحظة فهو يسابقه ، ويريد أن يكسب كل فرصة في زيادة علمه
وفعاليتيه . . يقول الصحابي جابر : « بلغني حديث عن رجل سمعه من
النبي ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً حتى
قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس . فقلت للبواب : قل له جابر
على الباب . فقال : ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم . فخرج يظاً ثوبه
فاعتنقني واعتنقته فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله
ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع . . » (٢) .

وإعجاز القرآن يظهر في هذه الآية بتعبيرها الدقيق . . ولو كان
القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . فما كان البشر
يتصورون في زمن محمد ﷺ أن الناس سيكشفون سنة نزول المطر
ويصبح بإمكانهم التنبؤ عنه . . ولكن الإعجاز القرآني يجعل الآية منطبقة

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

على كل عصر ، ولا يمكن أن يأتي يوم يخطئها العلم فيه أو يكشف بطلانها وعدم انطباقها مع كل العصور . وهذا يذكرنا بما قاله « محمد أسد » عن القرآن : صحيح أننا لم نفهم معنى كل آية فيه . لكننا حتى الآن لم نكشف خطأ في أي آية من آياته (١) .

فلو اختلف التعبير قليلاً بحيث يفيد اختصاص الله وحده بعلم نزول المطر أو بحمل كل أنثى . . . مثلاً لو كانت الآية : إن الله عنده علم الساعة وعنده علم الغيث . . . لاختلف المعنى ولوجد المسلم نفسه - الآن - حائراً بين العلم والدين لا يستطيع التوفيق بينهما . . . وهذا ما حدث في العالم المسيحي . . . حيث أن بعض الرهبان في الماضي كانوا قد كتبوا الإنجيل بحسب ما فهموه . . . أو بحسب ما تذكروا منه ، لأن الجيل المعاصر لعيسى عليه السلام لم يكتب عنه الإنجيل ، بل إن الذي كتبوه كلامهم هم وبحسب تصوراتهم . . . فجاءت فيه أحياناً تصورات عن الكون ذاتية تتناسب مع المعارف التي كانت في عصرهم . . . فلما جاء العلم والتقدم العلمي أثبت أن بعض هذا الكلام ليس صحيحاً - مثل فكرة كروية الأرض ودورانها - فتشبت رجال الدين بنصوص كتابهم وكفروا كل من يخالف عبارة فيه ولو جاء بالبراهين والأدلة ؛ وهكذا حكموا بالإعدام على بعض العلماء . . . وشنوا حملة مضادة للعلم كان من نتائجها البعيدة انفلات الناس من الدين . . . ولعل المتأمل في انفلات هؤلاء من دينهم يجد لهم بعض العذر بسبب هذا التناقض الذي فرض عليهم . . . أما نحن فلا مسوغ لنا في الانفلات من ديننا . . . ولكننا نقلد . . .

وحديث رسول الله ﷺ عن هذه المغيبات الخمس الواردة في الآية

(١) انظر كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ، تأليف : « محمد أسد » .

وقوله عنها : « في خمس لا يعلمهن إلا الله »^(١) يفيد أن الله عنده العلم المطلق بكل جوانب هذه الأمور الخمسة . . وقد يكشف الإنسان ويزداد علمه ولكن لا مجال للمقارنة بين علم الله وعلم الإنسان .

﴿ إن الله عليم خبير ﴾ . .

عليم : تفيد السعة ، وخبير : تفيد الدقة والمعرفة بكل صغيرة تحدث . . علم يتصف بالسعة والعمق . . فأين أنت أيها الإنسان من العليم الخبير . . ؟ !

وهكذا تختم السورة . والإنسان يتضاءل أمام علم ربه وجلاله . .

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾^(٢) ؟ !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) قسم من حديث طويل رواه البخاري .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨٣ .

من أعمال المؤلفة :

سمية بنت خياط

تحدث الكاتبة في هذه القصة عن أول شهيدة في الإسلام . . وكيف وقف التاريخ في بطحاء مكة ليسجل في صفحاته صورتين متقابلتين من صور الإنسان :

- صورة الخسّة والاستكبار والعتوّ في الأرض . . .
- وصورة الإيمان الذي يتحدّى العذاب ليثبت للناس على مرّ الأجيال ، أن الإيمان أغلى من كل شيء . . حتى من الحياة . . وأقوى من كل مستكبر . .

وقصة « سمية » تتعلق بموضوع خطير يمثّل مشكلة العالم قديماً وحديثاً . . إنه الاستكبار والاستضعاف . . وإنها لأزمة عالميّة استنفرت جهود المصلحين في كل عصر . . ولقد عالجه القرآن الكريم مبتدئاً بإخراج المستضعف من استضعافه حيث زوّده بأنجح أسلوب : ﴿ كلا . لا تطعه ، واسجد ، واقرب ﴾ .

أم سليم بنت ملحان

تبرز الكاتبة في هذه القصة دور المرأة المسلمة الأولى في بناء المجتمع الربّاني . . وتبيّن أن المرأة لم تنحطّ إلى دور الدّمية إلا عندما انحدر المجتمع المسلم من مرحلة العقل الى مرحلة الغريزة . .

وإنها لسنّة الحياة . . كلما أتبع الإنسان هواه وخضع لمنطق القوة ،
ظهرت المرأة الدّمية في البيوت وفي الطرقات بزيتها وحللها . .
إننا عندما نعيش أحداث هذه القصة ، سنغبط الطفل الذي ينشأ
بين أبوين مجاهدين . . إذ أنه يرى من إقدام أبيه وتضحيته ، ما يملأ قلبه
شجاعة وعقله سعة وإدراكاً . . ويرى من سعي أمه ونشاطها ومساهمتها
الإيجابية ، ما يلهب نفسه عاطفة طيبة نديّة . .

أم حكيم بنت الحارث

في قصة هذه الصحابية الكريمة تبرز الكاتبة شخصية
المرأة المسلمة الأولى لتبدو رائعة ضمن الإطار الإيماني
الذي أحيطت به . . .

إنها شخصية تتحرك بفعالية وإيجابية لا تقل عن فعالية
وإيجابية الرجل المسلم . . .

شخصية تخلصت من خواء الجاهلية وضلالاتها . . .
فتحولت من مجرد دمية أو جارية للرجل الى امرأة تسكن
الإنسانية في جوانحها . . فعرف العالم قيمتها ، وأثر
شخصيتها في تغيير وجهة العالم .

فجدير بك أختي المسلمة أن تعيدي النظر في
شخصيتك فتحاولي إزالة ما علق بك من سلبية وتخلف
وتتأسي بشخصية الصحابية التي صنعها القرآن ، وتعهدتها
رسول الله ﷺ بتربيته ورعايته .

أضواء على سورة يس

أسلوب جديد في تناول الموضوعات القرآنية .. تبرز فيه الكاتبة دور كتاب الله تعالى في حياة البشر ، وأنه نزل ليكون حياة للناس .. هادياً لهم .. ينقذهم من الضلال .. من الهاوية .. إلى طريق الخير .. إلى الهدى .. إلى سعادة الدارين ..

إن الأداة الرئيسة في إنقاذ الناس ، هي تبليغ البشر آيات ربهم تبليغاً مبيناً ، إذ أن إعراض الأكثرية عن الحق إنما بسبب من جهلهم به :

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ .

وتبين لنا الكاتبة أن الصراع بين البشر عبر التاريخ إنما هو بين المستكبرين والمستضعفين .. وأن رسالة الأنبياء جميعاً تتركز على توحيد الله .. وأن البشر كلهم عباد لله ، فلا مستكبر ولا مستضعف ..

وأن عودة مجد الإسلام ، لن تكون إلا بعودة المسلمين إلى كتاب الله : يتدبرون آياته ويتلونه حقّ تلاوته ، ويرون في الآفاق والأنفس آيات الله التي تبين أن ما جاء به القرآن هو الحق ..

ميلاد جديد

ميلاد جديد .. مجموعة قصصية .. فيها صور من واقع الأسرة في مجتمعنا .. تعرضها الكاتبة بأسلوب ممتع جذاب ، يتسم بالجرأة والصراحة ..

إن الفشل الذي قد تعانيه الأسرة ، ليس سببه سوء الحظ .. أو
القدر .. بل بما كسبت أيدي الناس .. فحسن الاختيار والتوافق بين
الزوجين عاملان أساسيان في نجاح وهناء عش الزوجية .. والأسرة
الناجحة ، هي التي يتأسس بنيان الحياة الزوجية فيها على تقوى من
الله .. ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله خير ، أم من أسس بنيانه
على شفا جرف هارٍ فانهار به .. ﴾ ؟ . بل من أسس بنيانه على تقوى من
الله ..

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة بقلم جودت سعيد
١١	في رحاب الذكر الحكيم
١٢	سورة لقمان
١٤	مفاهيم سورة لقمان
● الفصل الأول :	
١٥	القرآن الكريم ومواقف الناس منه
١٧	١ - افتتاح السورة
١٩	٢ - المحسنون
٣٩	٣ - المعرضون وجزاء المؤمنين
٤٤	٤ - صور من خلق الله
● الفصل الثاني :	
٥١	لقمان الحكيم
٥٣	١ - حكمة لقمان ، شكره لله
٥٦	وصية لقمان لابنه
● الفصل الثالث :	
١٠٣	أيها الإنسان ماذا أنت فاعل ؟ !

- ١٠٥ ١ - الكون مسخر للإنسان المنعم عليه
- ١١٤ ٢ - موقف المجادل المقلد
- ١١٥ ٣ - جزاء الفريقين
- ١١٩ ٤ - اعتراف الفطرة بالله الخالق
- ١٢٤ ٥ - علم الله وقدرته

● الفصل الرابع :

- ١٢٧ الله هو الحق
- ١٣٠ ١ - الكون دليل على الله
- ١٣٨ ٢ - الإنسان يلجأ الى الله عند الشدة والهول
- ١٣٩ ٣ - فكيف بهول يوم القيامة ؟ !
- ١٤٥ ٤ - خاتمة السورة ، المغيبات الخمس
- ١٥٣ من أعمال المؤلفة
- ١٥٧ المحتوى

طبع هذا الكتاب
بعد موافقة الإدارة العامة للمطبوعات
ومراقبة المصاحف برئاسة إدارات
البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
 بالرياض برقم ٥/٢٤٩ تاريخ
١٤٠٧/٢/٢٦ هـ

هذا الكتاب .. تأملات متواضعة في سورة
لقمان .. نهجت فيه المؤلفة أسلوب كتب التفسير
المعتمدة ، كما استخدمت شاهدي عدل - آيات الله في
الآفاق والأنفس - وذلك لبيان أن آيات القرآن حق .
ويوضح الكتاب أن الإخلاص لله في أسمى معانيه
هو خدمة الطبيعة الإنسانية .

كما يؤكد الكتاب أن نقطة الانطلاق في التحويل
الاجتماعي هي تغيير ما بالأنفس ، بأن نسلك طريق الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر .. فالعلماء والمصلحون يمثلون
جهاز الرقابة في المجتمع ، وأي خلل يطرأ على هذا الجهاز
يؤدي إلى أزمات وفتن اجتماعية ..

